منهج الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التعامل مع السيرة النبوية

د. حسين شرفه

أستاذ التفسير والسيرة النبوية

مَجلَّـــة

كُلِّيَّةِ الدِّراساتِ الإِسلاميَّةِ والعربيَّةِ

مجلة علمية محكَّمة

نصف سنويَّة

تأسست سنة ١٩٩٠

العدد الحادي والأربعـــــون

رجب ١٤٣٢ هـ - يونيو ٢٠١١ م

المشرف العام

د. محمـد عبدالرحمن
مدير الكلية

رئيس التَّحرير

أ. د. أحمـد حســـاني

هيئة التَّحرير

أ. د. محمـد عبّـدالله سعـــادة
أ. د. عبـدالله محمـد الجبوري
أ. د. عمـــر عبـــد المعبـــود
أ. د. فيصـل إبراهيم رشيـــد

ردمد : ١٦٠٧-٢٠٩X

تفهرس المجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

المحتويـــــــات

- **الافتتاحية**

رئيس التحرير ١٥-١٦

- **متعة المطلقات في الفقه الإسلامي وقانون الأحوال الشخصية الإماراتي**

د. حسن تيسير عبدالرحيم شموط ١٩-٦٤

- **مقاصد الإصلاح القضائي**

د. مسفر بن علي القحطاني ٦٥-٩٨

- **النَّوَازِلُ الفِقْهِيَّةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الحَاضِرَةِ التِّلِمْسَانِيَّة**

د. ماحي قندوز ٩٩-١٤٠

- **منهج الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التعامل مع السيرة النبوية**

د. حسين شرفه ١٤١-٢٢٠

- **تجليات الوجد الرومانسي في ديوان «ريفية» لسيف الرمضاني**

د. محسن بن حمود الكندي ٢٢١-٢٦٦

- **نقد البلاغة في الدراسات الأسلوبية الحديثة (مراجعة وتقويم)**

د. بن عيسى بطاهر ٢٦٧-٣١٤

- **التنغيم في النحو العربيّ دلالاته و وظائفه**

د. منيرة عبدالله ناصر الفريجي ٣١٥-٣٥٦

- **اتجاهات أعضاء الهيئة التدريسية نحو تقويم الطلبة لأدائهم التدريسي (جامعة الخرطوم-نموذجاً)**

د. انتصار أبو ناجمة محمد سعد ٣٥٧-٤٠٠

منهج الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التعامل مع السيرة النبوية

د. حسين شرفه
أستاذ التفسير والسيرة النبوية المساعد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

يتناول هذا البحث «منهج الشيخ البشير الإبراهيمي في التعامل مع السيرة النبوية» من خلال ثلاثة مباحث:

الأول: روافده في السيرة النبوية: فقد استقى الإبراهيمي السيرة النبوية من مصادرها الأصلية على يد أساتذة أكفاء، ثم ازدادت رسوخا حين تولى تدريسها في رحلة تعليمية طويلة.

الثاني: نقده للمناهج التقليدية في التعامل مع السيرة النبوية: فقد كان للتلقي المنهجي للسيرة أكبر الأثر في تكوين حسّ نقديّ لدى الإبراهيمي، وهو ما مكنه من تمييز الأصيل من الدخيل في السيرة، والذّوْد عنها بالكشف عن تأويل الجاهلين وتحريف الغالين.

الثالث: نماذج من أحداث السيرة النبوية ومنهج الإبراهيمي في التعامل معها: وهنا كانت لي وقفة متأنية تبين من خلالها أن الإبراهيمي انتقل بالسيرة من صورتها النمطية وأعطاها أبعادا جديدة باعتبارها مرجعية وأنموذجا فذا في التربية والإصلاح، وهي المهمة التي اضطلع بها الإبراهيمي في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

مقدمة

يمثل الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١٨٩٩-١٩٦٤) أحد أقطاب حركة الإصلاح بالجزائر، وأحد أعلام الفكر الإسلامي الحديث، فقد كانت له إسهامات كبيرة في الإصلاح والتربية، وحظي باهتمام الكثير من الدارسين، فتناولوا بالبحث منهجه في الإصلاح والتغيير باعتباره الرجل الثاني في جمعية العلماء المسلمين بعد إمامها ورائدها الشيخ عبد الحميد بن باديس، كما لقيت مقالاته عناية من النواحي الفكرية والأدبية، ومن هنا فإن الحديث عن الإبراهيمي ليس اكتشافا لجديد، ولا هو تعريف برجل مغمور، وإنما هو إبراز لجانب من جوانب فكره لم يحظ بالاهتمام، فتراث الإبراهيمي -شأن كثير من أعلام الفكر الحديث- لا يزال بحاجة إلى المزيد من البحث.

وتأتي هذه الدراسة لتميط اللثام عن جانب مهم لدى الإبراهيمي هو: «**منهجه في التعامل مع السيرة النبوية**». ذلك أن السيرة النبوية - بما تمثله من أسوة حسنة - كانت أحد أهم الوسائل التربوية التي استعان بها الإبراهيمي في رسالته الإصلاحية.

فما هي روافده في السيرة النبوية؟ وما موقفه من المناهج التقليدية في التعامل معها؟ وما المنهج الذي تعامل به معها؟ وإلى أي حد استطاع أن يستثمرها في مهمته التربوية؟.

هذه أهم التساؤلات التي تطرحها هذه الدراسة، معتمدة في المقام الأول على آثار البشير الإبراهيمي المطبوعة، ومستعينة بمصادر ومراجع ذات علاقة بالموضوع.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث وفق الخطة الآتية:

المبحث الأول: وفيه استعرضت روافد البشير الإبراهيمي في السيرة النبوية، وذلك من خلال مطلبين الأول: روافده متعلما، والثاني: روافده معلما.

المبحث الثاني: وفيه رصدت نقد البشير الإبراهيمي للمناهج التقليدية في التعامل مع السيرة النبوية، وجاء في ثلاثة مطالب هي:

١- نقد إهمالهم للقرآن الكريم كمصدر أول للسيرة النبوية.

٢- نقد تركيزهم على الجانب البشري في السيرة وإغفالهم للجانب العملي والتربوي.

٣- نقد تحويل أحداث السيرة إلى قصص حشوية.

المبحث الثالث: نماذج من أحداث السيرة النبوية ومنهج الإبراهيمي في التعامل معها، وفيه استعرضت عبر خمسة مطالب خمسة أحداث كبرى هي:

١- المولد النبوي: ميلاد دين وإخراج أمة.

٢- الإسراء والمعراج: وراثة النبوة وإسلامية بيت المقدس.

٣- الهجرة النبوية: استكمال القوة وتوحيد عناصر الأمة.

٤- غزوة بدر: غلبة الفئة القليلة، وتدشين تاريخ حافل بالانتصارات.

٥- فتح مكة: استرجاع موطن الإسلام، وإرساء أسس العدل والمساواة.

فأرجو أن تُسْهِمَ هذه الدراسة في إبراز هذا الجانب المهم في فكر وتراث الإبراهيمي.

ومن الله وحده أستمد العون والتوفيق.

المبحث الأول:

روافد الإبراهيمي في السيرة النبوية

يهدف هذا المبحث إلى الإلمام –قدر المستطاع– بأهم العوامل الثقافية التي أسهمت في تكوين الرصيد الثقافي للبشير الإبراهيمي في مجال السيرة النبوية، ذلك أن السيرة النبوية علم له أصوله وفروعه التي لابد لدارسها أن يلم بها، خاصة إذا كان ممن يخرجها من دائرة السرد القصصي إلى أبعادها التربوية والاجتماعية –شأن الإبراهيمي– الذي أدرك منذ نعومة أظفاره ما للسيرة النبوية من دور أساس –بعد القرآن الكريم– في رسم منهج الإسلام في التربية، ولذلك حرص أن يأخذها من مصادرها الأساسية ويتلقاها على أيدي معلمين ومربين أكفاء.

وقد مرت رحلة الإبراهيمي في تلقيه للسيرة النبوية عبر محطتين بارزتين، الأولى: حين كان متعلما، والثانية: حين أصبح معلما.

المطلب الأول: روافده متعلما

تلقى البشير الإبراهيمي تعليمه الأول بمسقط رأسه، على يد عمه الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، فبدأت تتكون لديه المعارف الأولى والأساسية حول السيرة النبوية مستقاة من مصدرها الأول وهو القرآن الكريم الذي أتم البشير حفظه حفظا متقنا مع فهم مفرداته وغريبه وهو في التاسعة من عمره[1].

ولم تقف علاقة الإبراهيمي بالسيرة عند هذا الحد، بل أتيح له أن يحفظ ألفية العراقي في السيرة والمسماة: «نظم الدرر السنية في السير الزكية»[2] حين بلغ

١- انظر أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله د، ٥/ ١٦٤و٢٧٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ١٩٩٧.

٢- تقع المنظومة في ألف واثنين وثلاثين بيتا، وقد حظيت باهتمام العلماء، فوضعوا عليها شروحا وحواشي واستخرجوا منها فوائد، وقد بلغ عدد شروحها فيما وقف عليه المحقق محمد علي المالكي الحسني (ت: ١٤٢٥هـ) اثني عشر شرحا. (انظر: ألفية السيرة النبوية للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، تحقيق وتعليق: السيد محمد بن علوي المالكي الحسني، ص: ١٠-١١، دار المنهاج جدة،=

الرابعة عشرة من عمره[٣]، والألفية -وإن كتبت نظما- إلا أنها استوعبت جل أحداث السيرة النبوية، وحافظها سيلمّ -دون ريب- بمجملها، خاصة إذا كان كالإبراهيمي الذي يقول عن نفسه: «إن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهنا صيودا للمعاني ولو كانت بعيدة»[٤].

هذا ما تزود به الإبراهيمي من السيرة النبوية في بداية حياته، ثم جاءت المرحلة الثانية التي أتيح له فيها أن يتتلمذ على أيدي شيوخ أكثر تخصصا وتعمقا في العلوم الشرعية، وذلك حين هاجر سنة ١٩١١ إلى الحجاز وأقام بالمدينة المنورة حتى سنة ١٩١٧.

وهناك وجد ضالته لدى ثلاثة شيوخ كان لهم أكبر الأثر في حياته العلمية، ويحدثنا الإبراهيمي عن اثنين منهما بكثير من الإعجاب والإكبار فيقول: «لم أجد علما صحيحا إلا عند رجلين هما شيخاي: الشيخ العزيز الوزير التونسي والشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي، فهما- والحق يقال- عالمان محققان واسعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة، ولم أكن راغبا إلا في الاستزادة من علم الحديث، رواية ودراية، ومن علم التفسير فلازمتهما ملازمة الظل... وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيرا من علماء الإسلام إلى الآن»[٥].

إن الإبراهيمي بتتلمذه على الشيخين المذكورين يثري مصدرا أساسيا من مصادر السيرة النبوية كان قد حازه في صغره، فها هو يتلقى التفسير على يد أحد الأعلام فتتكشف له أسرار الوحي الرباني وتتضح له معاني آيات وسور حفظها منذ نعومة أظفاره، وبذلك تعمقت لديه حقائق السيرة كما يقدمها القرآن الكريم، هذا من ناحية، وهو من ناحية أخرى يكتسب علما جديدا يمثل المصدر الثاني من مصادر السيرة

=السعودية، ط١/ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

٣- انظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ١٦٤و٢٧٣.

٤- المصدر نفسه، ٥/ ٢٧٤.

٥- المصدر نفسه، ٥/ ٢٧٥.

وهو الحديث النبوي الشريف؛ فكتبُ الحديث تقدم مادة موثقة يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة، كما أن الأحاديث نفسها «توضح العقائد والآداب الإسلامية، وتبين أحاديث الأحكام النواحي العبادية والتشريعية من صوم وصلاة وحج وزكاة ونظم سياسية ومالية وإدارية، ولا يمكن تكامل تصور الإسلام إلا بمعرفة الحديث، ولكل هذه الجوانب التي تناولتها الأحاديث صلة بالحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية في عهد النبي ﷺ»[٦].

ولأن القرآن الكريم لا يرسم إطارا متكاملا للسيرة النبوية، فهو ليس كتاب تاريخ يتقصى الأحداث بتفاصيلها ويذكر الأشخاص والوقائع، كما أن كتب الحديث بطريقة تبويبها لا تعطي صورة كاملة عن أحداث السيرة، كان لابد أن تُملأ الفجوات باعتماد الكتب المتخصصة، وهذا ما استكمله الإبراهيمي على يد شيخه الثالث «محمد عبد الله زيدان الشنقيطي» الذي ينوه به قائلا: «وأخذت أنساب العرب وأدبهم الجاهلي، والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي، وهو أعجوبة الزمان في حفظ اللغة العربية وأنساب العرب، وحوادث السيرة»[٧]. هذا ماتلقاه الإبراهيمي على يد مشايخه. كما أثرى رصيده من السيرة النبوية من خلال مطالعاته الكثيرة، إذ كان شغوفا بالقراءة، فكان يلتهم كل ما يقع بين يديه من مطبوع أو مخطوط، بل ربما يحفظه أو يحفظ جزءا منه، يقول الإبراهيمي واصفا شغفه بالقراءة: «كنت أتردد على المكتبات الجامعة، فلا يراني الرائي إلا في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حتى استوعبت معظم كتبها النادرة قراءة، وفي مكتبة السلطان محمود، وفي مكتبة شيخنا الوزير، وفي مكتبة بشير آغا، أو في مكتبات الأفراد الخاصة بالمخطوطات، مثل مكتبة آل الصافي، ومكتبة رباط سيدنا عثمان، وفي مكتبة آل المدني وآل هاشم، ومكتبة

٦- د/أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٤٩، مكتبة العبيكان الرياض، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٧- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٢٧٦.

الشيخ عبد الجليل برادة، ومكتبة الوزير التونسي العربي زروق، كما كنت أستعير كثيرا من المخطوطات الغريبة من أصدقائي وتلامذتي الشناقطة»[٨].

لاشك أن الإبراهيمي وهو يتردد على هذا العدد الكبير من المكتبات العامة والخاصة، ويطلع على ما احتوته من كنوز في شتى الفنون والمعارف، قد اطلع على مؤلفات في السيرة النبوية التي تمثل جزءا كبيرا من المكتبة العربية والإسلامية.

وهناك مصدر آخر أسهم في تنمية ثقافة الإبراهيمي حول السيرة النبوية، وإن لم يكن من جنس ما تلقى عن شيوخه، وأقصد بذلك سكناه بالمدينة النبوية التي منحته فرصة الوقوف على بعض آثار النبوة عن كثب، فكثير من الآثار الدالة على بعض أحداث السيرة مازالت حاضرة -خاصة في تلك الفترة- ولا يخفى ما في الوقوف على الآثار من تعميق للمعارف النظرية، خاصة أن الإبراهيمي قد وُهِبَ قريحة نيرة وذهنا صيودا للمعاني ولو كانت بعيدة كما حدثنا عن نفسه.

كان من نتائج هذا التحصيل الكبير للسيرة النبوية سواء عن طريق المشايخ أو المطالعات أن استوعب الإبراهيمي السيرة النبوية استيعابا كاملا ومتميزا، وقد تجلى ذلك بوضوح في تحريه أصح الروايات والأخبار، فلم يورد فيما كتب عن السيرة أحاديث موضوعة أو غريبة، وحتى الضعيف منها لم يرد إلا لماما، فقد كان أكثر اعتماده على نصوص القرآن الكريم مع فهم دقيق وعميق لمعاني الآيات والأحكام والتشريعات التي ترشد إليها، ثم على الصحيحين، وبدرجة أقل السنن، وسوف يلحظ القارئ الكريم ذلك من خلال ما قمت به من تخريج للأحاديث التي اعتمدها الكاتب.

كانت هذه هي اللبنات الأولى التي بنى منها الإبراهيمي معارفه في السيرة النبوية، وقد تبين أنها استوعبت مصادرها الأساسية، ولذلك كان بنيانه متينا،

٨- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٢٧٦.

ولكن هذا البنيان علا وترسخ مع روافده من السيرة حين أضحى معلما.

المطلب الثاني: روافده معلما

بدأ الإبراهيمي يمارس التعليم حين بلغ الرابعة عشرة من عمره، ففي سنة ١٩٠٣ توفي عمه ومعلمه محمد المكي الإبراهيمي فخلفه البشير، فكان يدرس زملاءه الطلبة واستمر على ذلك حتى رحل إلى الحجاز سنة ١٩١١ [٩]. ولم يذكر المواد التي كان يدرسها لمدة ثماني سنوات، ولكنها في الغالب ما كان قد تلقاه عن عمه، وقد عرفنا أنه حفظ وقتها ألفية العراقي في السيرة النبوية، فلا يستبعد أن يكون قد علَّم تلاميذه بعض مضامينها، ثم كانت المحطة الثانية أثناء إقامته بالمدينة النبوية حيث كان الإبراهيمي يلقي دروسا بالمسجد النبوي[١٠]، كان من بينها دروس في الشمائل النبوية، وقد سلك فيها منهجا جديدا يركز فيه على الفضائل الروحية مخالفا في ذلك ما اعتاده المدرسون من إبراز الشمائل البدنية أو الصفات الخَلقية، مما استرعى انتباه أحد العلماء المشتغلين بهذا العلم فأبدى إعجابه بذلك الشاب، وقد أورد الإبراهيمي ما دار بينه وبين ذلك العالم فكتب يقول: «لقيت يوما الشيخ يوسف النبهاني –رحمه الله– بباب من أبواب الحرم فسلمت عليه فقال لي: سمعت آنفا درسك في الشمائل، وأعجبني انحازك باللوم على مؤلفي السير في اعتنائهم بالشمائل النبوية البدنية، وتقصيرهم في الفضائل الروحية، وقد أجزتك بكل مؤلفاتي ومروياتي وكل ما لي من مقروء ومسموع من كل ما تضمنه ثبتي»[١١].

فهذا النص لا يثبت تدريس الإبراهيمي للسيرة النبوية وهو بالمدينة النبوية فحسب، ولكنه يبين أيضا المنهج الذي كان يسلكه في تلك الدروس.

٩- انظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ١٦٥و٢٧٤.
١٠- المصدر نفسه، ٥ / ١٦٦و٢٧٧.
١١- المصدر نفسه، ٣ / ٥٤٦-٥٤٧.

أما المحطة الثالثة في حياة البشير التعليمية فكانت دمشق التي حل بها سنة ١٩١٧ بعد أن أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة بسبب استفحال ثورة الشريف حسين بن علي[١٢]، ولم يمض سوى شهر واحد على إقامته حتى طُلب منه أن يُسْهِمَ في التعليم بالمدارس الأهلية، كما دعي إلى إلقاء دروس بالجامع الأموي، وقد ذكر البشير ذلك في خلاصة تاريخ حياته العلمية والعملية فقال: «ما لبثت شهرا حتى انهالت عليَّ الرغباتُ في التعليم بالمدارس الأهلية، فاستجبت لبعضها، ثم حملني إخواني على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان فامتثلت وألقيت دروسا (تحت قبة النصر الشهيرة) على طريقة الأمالي، فكنت أجعل عماد الدرس حديثا أمليه من حفظي بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثم أملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع الناس شيئا لم يألفوه ولم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسيني»[١٣].

صحيح أن الإبراهيمي لم يحدثنا عن إلقائه دروسا في السيرة النبوية وهو في دمشق، ولكنه لم يبتعد عنها كثيرا في دروسه الرمضانية حين كان يشرح الأحاديث النبوية، فكلاهما متعلق بالمصدر الثاني وهو السنة النبوية.

ولا عجب أن يتبوأ الإبراهيمي هذه المكانة فيكون محط اهتمام حيث حل، ويلقي الدروس في أشهر المساجد، فقد أوتي -كما عرفنا آنفا- من الملكات ما يعز نظيرها.

المحطة الرابعة والأخيرة في مسيرة الإبراهيمي التعليمية كانت الجزائر، فمنها انطلق وإليها عاد، وقد علا كعبه وذاع صيته، عاد مزودا بعلم غزير ونفس قوي، فبادر من أول يوم في العمل الذي سبقه إليه ابن باديس، يقول: «بدأت أولا

١٢- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٢٧٧.
١٣- الصفحة نفسها.

بعقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس الدينية للجماعات القليلة، فلما تهيأت الفرصة انتقلت إلى إلقاء الدروس المنظمة للتلامذة الملازمين، ثم تدرجت لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الآهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الديني كل جمعة في بلد، ثم لما تم استعداد الجمهور الذي هزته صيحاتي إلى العلم، أسست مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشبان نشأة خاصة»[١٤].

فالمحاضرات التاريخية التي كان يلقيها البشير تدور بلاشك حول التاريخ الإسلامي خاصة في عصوره الزاهية، وعلى رأسها عصر النبوة والصحابة، ومن هنا فإن تلك المحاضرات ألمت ببعض أحداث السيرة النبوية.

كانت هذه هي المرحلة الأولى وقد استمرت إلى سنة ١٩٣١ وهو تاريخ إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم جاءت المرحلة الثانية من مسيرة الإبراهيمي التعليمية التي كرس لها ما بقي من عمره، وقد كان التعليم والتربية هما الدعامتان الأساسيتان لرسالة الجمعية والهدف من إنشائها، ومنذ تم تعيين البشير بمقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان، فأنشأ فيها دار الحديث، باشر مهمته، فنشط فيها نشاطا منقطع النظير، يحدثنا رحمه الله عن هذه الفترة المباركة من حياته فيقول: «توليت بنفسي تعليم الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت ألقي عشرة دروس في اليوم، أبدؤها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات»[١٥].

فالإبراهيمي لم يذكر من الدروس العشرة التي يلقيها في اليوم الواحد سوى

١٤- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ٢٧٩.
١٥- المصدر نفسه، ٥ / ٢٨٣.

درسي الحديث والتفسير يفتتح بالأول ويختم بالثاني، أما الدروس الثمانية الأخرى فقد سكت عنها ولا نستبعد أن تكون السيرة النبوية من ضمنها، ولئن فاتنا معرفة ذلك يقينا، فإن الدروس التي كان يلقيها بالنوادي بعد صلاة العشاء قد شملت السيرة النبوية من ميلاد النبي ﷺ إلى وفاته، فقد حصر البشير الفترة التاريخية من العصر الجاهلي إلى نهاية الدولة الأموية، فكانت مرحلة النبوة بمثابة اللؤلؤة من العقد، وفي تقدير عدد المحاضرات ببضع مئات ما يشير بأنه وقف عند أحداث السيرة النبوية وقفة متأنية يستعرض وقائعها ويستنبط أحكامها ويستخرج عبرها ودروسها، وليس ذلك ببعيد عن رجل جعل من تدريس التاريخ الإسلامي أحد وسائل تذكير الأمة بسالف مجدها ليكون ذلك سبيلا إلى تغيير أحوالها وواقعها.

ظل هذا دأب الإبراهيمي لسنوات عديدة، وظلت السيرة النبوية من أهم المقررات في التربية والتعليم الذي باشره تحت راية جمعية العلماء، وحين انتقلت إليه رئاستها بعد وفاة رائدها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٤٠، كان من أوائل ما بدأ به عهدته -وهو لا يزال في منفاه بآفلو- وضع «مرشد للمعلمين»، فكان من أهم المواد التي يتلقاها التلميذ أن يكون «محصلا لمبادئ الدين علما وعملا، ولمبادئ التاريخ الإسلامي الذي هو جزء من الدين، وأول تلك المبادئ السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين»[١٦].

فالسيرة النبوية أول مبدأ من مبادئ الدين الذي يتلقاه التلاميذ في مدارس جمعية العلماء، ولا يخفى ما في هذا المقرر من تربية النشء على حب النبي ﷺ وأصحابه وتمثل أخلاقهم، واقتفاء آثارهم.

ولم تقتصر توجيهات الإبراهيمي إلى أهمية السيرة النبوية على المعلمين، بل وسع من دائرتها فشملت الأئمة في المساجد، ففي كلمة له إليهم يقول: «إن من الفقه

١٦- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٢/ ١٠٩.

فقها لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لباب الدين، وروح القرآن، وعصارة سنة محمد ﷺ، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومتاركه، وهو الذي ورثه عنه أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين، وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والآخرة، وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمة فتحيا به، ونصحح به عقائدها، ونُقَوِّمَ به فُهُومَها، فتصحّ عباداتها وأعمالها»[١٧].

ففقه السيرة النبوية متضمن في فقه السنة الذي يدعو الإبراهيمي إلى إحيائه، فبه تحيا الأمة وبه يكون عزها في الدنيا والآخرة.

وفي مناسبة أخرى عاد البشير إلى توجيه الأئمة إلى معين السيرة النبوية ونبعها الفياض وذلك باستخراج ما فيها من معاني الشرف والعزة والرجولة، فكتب إليهم يقول: «وعليهم أن يمكنوا –ما استطاعوا – في نفوس السامعين معاني الشرف والرجولة وشرف النفس والاعتزاز بالإسلام والعروبة، فإن الإسلام جاء لجميع ذلك، وإن سيرة رسول الله ﷺ دائرة على ذلك»[١٨].

وهكذا ينقل الإبراهيمي السيرة النبوية من مجرد تاريخ وقصص إلى معان تحيا بها الأمة، وتلك هي الأبعاد والأهداف التربوية التي دأبت جمعية العلماء – وعلى رأسها البشير– على زرعها في نفوس الشعب الجزائري، فقد كان من أكبر أهدافها إحياء منهج النبي ﷺ في التربية والتعليم، يقول الإبراهيمي في بيان ذلك: «كانت الطريقة التي بنت عليها جمعيتنا أصول هذه النهضة هي الجمع بين التربية والتعليم، لأن العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه... والجمع بين التربية والتعليم هو وظيفة النبوة التي بينها الوحي في آية ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾»[١٩].

١٧- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ص ٣/ ١٩١.
١٨- المصدر نفسه، ٣/ ٢٨٧.
١٩- سورة البقرة: آية ١٥١.

وهناك محطة أخرى في حياة الإبراهيمي تبدو مهمة في بيان جهوده التعليمية والدعوية، وهي رحلته إلى الشرق سنة ١٩٥٢ والتي زار خلالها باكستان والعراق والحجاز، وقد استغرقت أزيد من سبعة أشهر قبل أن يستقر في القاهرة، وقد ألقى في كل تلك البلاد عددا كبيرا من المحاضرات تناولت موضوعات مختلفة، كان من بينها التاريخ وفقه السيرة النبوية بلاشك، يقول الإبراهيمي: «في يوم ٧ مارس سنة ١٩٥٢ خرجت من الجزائر إلى الشرق في رحلة منظمة البرنامج واضحة القصد، وأقمت في القاهرة أسبوعا ثم سافرت إلى باكستان فأقمت بها قريبا من ثلاثة أشهر استوعبت فيها زيارة المدن الباكستانية من كراتشي إلى كشمير وما بينهما، وألقيت في هذه المدن نحو سبعين محاضرة في الدين والاجتماع والتاريخ وأمراض الشرق وعلاجها، ثم رحلت عنها إلى العراق، واستوعبت مدنها من البصرة إلى حدود تركيا وإيران وجبال الأكراد، وألقيت فيها عشرات المحاضرات الاجتماعية والدروس الدينية، ثم رحلت عنها بعد نحو ثلاثة أشهر إلى الحجاز في حج سنة ١٩٥٢ نفسها، وألقيت كثيرا من المحاضرات والأحاديث، ثم رجعت إلى القاهرة يوم ٢٤ أكتوبر من تلك السنة، ثم ترددت منها على العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس مرات متعددة وألقيت في جميعها كثيرا من المحاضرات»[٢٠].

ولم يكن مقصد الإبراهيمي أن يفصل القول في طبيعة المحاضرات والدروس التي كان يلقيها ولكنه ألمح إلى عناوينها العريضة، وهي الدين والتاريخ والاجتماع، وكل ذلك من خلال مرجعية أساسها الكتاب والسنة، ومن هنا فإن السيرة النبوية ستكون حاضرة بقوة، إذ ما قيمة الدروس الدينية بمعزل عن السيرة؟ وما معنى التاريخ إذا لم يتضمن إشارة أو تفصيلا حول أفضل فتراته وهي صدر الإسلام؟ وعن أي اجتماع سيتحدث الإبراهيمي إلا أن يكون المجتمع

٢٠- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ١٦٩.

النبوي هو مثله الأعلى، فالسيرة النبوية حاضرة وإن لم يذكرها، لأن الإبراهيمي تربى في مدرستها واستوعب أحداثها.

فهذا الحضور المكثف للسيرة النبوية من خلال تلك الرحلة العلمية الطويلة للإبراهيمي، سواء في مرحلة التلقي والتحصيل أو مرحلة العطاء والتعليم، ليس أمرا مستغربا، لأن السيرة النبوية –على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام– ظلت منذ انبثاق نور الإسلام نبراسا للمهتدين وقدوة للسالكين ومنارة للحائرين، تربت على هديها الأجيال منذ أفضل القرون، فكانت تُعلم كالسورة من القرآن كما يُروى عن علي بن الحسين قال: «كنا نُعلم مغازي نبي الله ﷺ كما نُعلم السورة من القرآن»[٢١]، وكانت أفضل ما يوصي به الآباء أبناءهم فيما رُوي عن إسماعيل ابن محمد بن سعد قال: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ وسراياه ويعدها علينا ويقول: يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[٢٢].

هذه –في تقديري– أهم الروافد التي أمدت البشير الإبراهيمي بذلك الرصيد من سيرة النبي ﷺ، فقد تلقاها منذ فجر شبابه من ألفية العراقي نظما، ثم أثراها وهو طالب علم بالمدينة النبوية على يد شيخه الشنقيطي، ثم تعمقت معارفه في السيرة حين باشر مهمة التعليم، فكانت أحد أهم العلوم التي دَرّسَها عبر رحلته الطويلة بدءًا بقريته ثم المدينة المنورة فدمشق وأخيرا بالجزائر حيث حط الرحال، وهو في ذلك كله يحاول أن يخرج بالسيرة النبوية عن صورتها النمطية ليعطيها أبعادها التربوية والاجتماعية، وهو ما نجح فيه إلى حد بعيد خاصة في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

٢١- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ٢ / ١٩٥، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف الرياض، ١٤٠٣هـ.
٢٢- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المبحث الثاني:

نقد الإبراهيمي للمناهج التقليدية في التعامل مع السيرة النبوية

كان للمصادر التي استقى منها البشير السيرة النبوية –وفي مقدمتها القرآن الكريم والحديث الشريف– أكبر الأثر في تكوين حسه النقدي الذي مكنه من تمييز الأصيل من الدخيل في السيرة، كما كان من نتائج تعامله المستمر معها تحصيلا وتعليما، الاهتداءُ إلى المنهج الأمثل للتعامل معها. وفي المقابل عرف كثيرا من الأخطاء التي وقع فيها كل من تناول أو تعامل مع السيرة النبوية بعيدا عن مقاصدها وأهدافها والتي أجملها القرآن الكريم في لفظ جامع هو: الأسوة، فقال الله جل ذكره: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٢٣].

وقد تركز نقد الإبراهيمي للمناهج التقليدية في تعاملها مع السيرة النبوية حول قضايا ثلاث كما أشرت إليها في المقدمة والتي سأتناولها تباعا في هذا المبحث.

المطلب الأول: نقد إهمالهم للقرآن الكريم كمصدر أول للسيرة النبوية

من أكبر الأخطاء التي وقع فيها بعض من كتب في السيرة النبوية إغفالهم للقرآن الكريم كمصدر أول لها، وهم بذلك يجنون على السيرة جناية كبيرة حين يفصلون بينها وبين هذا المصدر العظيم، الذي نَقل إلينا بدقة متناهية، ومصداقية لا مثيل لها، وقائع وأحداثا من حياة رسول الله ﷺ سواء قبل بعثته أو بعدها.

ومشكلة الذين أهملوا القرآن الكريم في دراساتهم حول السيرة النبوية أنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فليتهم اعتمدوا مصادر موثوقة إذ أهملوا مصدرها الأول –وأنى لهم ذلك؟– ولكنهم راحوا يلتمسون أخبار السيرة من كتب اشتملت على روايات مكذوبة وأخرى ضعيفة، فأعطوا صورة

٢٣- سورة الأحزاب: آية ٢١.

مشوهة لسيرة أعظم وأكرم مخلوق ﷺ.

من هنا جاء نقد الإبراهيمي لبعض كتّاب السيرة الذين أهملوا مصدرها الأول، فقال: «تركنا هذا المرجع الإلهي المعصوم في اقتباس سيرة نبينا كما هجرناه في كل ما جاء به من عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وأصبحنا نتلمسها من كتب فيها الموضوع وفيها المصنوع، وفيها الصحيح الذي لا يثير عبرة ولا يحيي نزعة من نزعات الخير فينا، ولا يحملنا على التأسي بتلك السير التي هي كنوز معارف ومعادن فضائل وأعلام اقتداء، ومنازل نقلة بالفكر إلى المثل الأعلى، وبالروح إلى الملأ الأعلى»[٢٤].

إن هذه المثل وتلك المعاني التي أشار إليها الإبراهيمي لا تتأتى إلا بأخذ السيرة النبوية من مصادرها الأصلية، وفي مقدمتها -وبلا منازع- القرآن الكريم، وكل تفريط فيه سيُفقد السيرةَ النبوية روحها وسيحرم متلقيها من كنوزها.

المطلب الثاني: نقد تركيزهم على الجانب البشري في السيرة النبوية وإغفالهم للجانب العملي والتربوي

لخص القرآن الكريم أهمية سيرة النبي ﷺ في لفظ جامع ذي مدلول واسع وهو «الأسوة» فقال جل وعلا: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٢٥]، قال ابن كثير في تفسيره: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»[٢٦].

من معاني هذه الأسوة أن تظل سيرة رسول الله ﷺ مصدرا خالدا، لا يعتريها تقادم، مهما تغيرت الظروف والأحوال وتبدلت البيئات والأشخاص، فهي جزء من الوحي المعصوم، وفرع من الذكر المحفوظ.

٢٤- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤/ ١٤٦.
٢٥- سورة الأحزاب: آية ٢١.
٢٦- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٤٣٧، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت / لبنان، ط٣ / ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ومن معاني الأسوة الحسنة في السيرة أيضا التجدد، فهي ليست قالبا نمطيا جامدا، ولا قصة تاريخية محددة الزمان والمكان والأشخاص، بل هي قيم ومعان ومبادئ تتجدد في كل حين، «فالسيرة هي البيان النبوي العملي والضابط لكيفيات التعامل البشري بطبيعته ومحدوديته وظروفه مع الوحي المعصوم، والمطلق والصالح لكل زمان ومكان.. فالخلود للرسالة الإسلامية يعني، فيما يعني، امتلاك الإمكانية على قراءة السيرة في كل عصر، بشكل يحقق القدرة على الإجابة عن مشكلات الواقع في كل زمان ومكان، أو بمعنى آخر تجريد السيرة النبوية من قيد الزمان والمكان، وتوليد رؤية من خلالها لمعالجة الواقع والإجابة عن أسئلته ومشكلاته»[٢٧].

إن السيرة النبوية ليست مجرد تاريخ – وإن كانت حلقة متميزة في تاريخ الأمة الإسلامية– بل هي الحاضر والمستقبل، فهي من الحاضر عطاء ومصدر للتشريع، ومن المستقبل رؤية واستشراف[٢٨]. وقد تعرضت السيرة النبوية عبر تاريخها الطويل للكثير من التحريف والتصحيف مرة، والقراءة الخاطئة أخرى، والتوظيف المشبوه ثالثة، ولم تسلم من ذلك إلا في فترات قليلة حين كانت الأمة تستشعر رسالتها، وتؤدي وظيفتها في الشهادة والاستخلاف.

ومن الفترات التي عرفت قراءة صحيحة للسيرة وتوظيفا واقعيا لهديها ما قامت به مدرسة الإصلاح في العصر الحديث، والتي تأثر بها البشير الإبراهيمي، فإذا بنظرته إلى السيرة النبوية تأخذ أبعادا اجتماعية وتربوية وتخرجها من إطارها الجامد الذي كرسته المدرسة التقليدية، فقد مكنته قراءته الجديدة للسيرة من الوقوف على ما فيها من عبر مثلات عبر عنها بقوله: «ما زلت منذ درستُ السيرة

٢٧- عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص: ٢٢، تأليف د/ إبراهيم علي، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد: ٥٤ رجب ١٤١٧هـ، ديسمبر ١٩٩٦م.

٢٨- انظر المرجع نفسه، ص: ٢٣.

بعقلي، أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لجي من العبر والمثلات»[٢٩].

والقراءة العقلية التي يعنيها الإبراهيمي في هذا المقام ليست سوى القراءة المتمعنة والعميقة التي تخرج السيرة من النظرة التاريخية الجامدة إلى النظرة الحركية المتجردة من قيود الزمان والمكان، ولذلك كانت كالبحر في حركته الدائبة عبر المد والجزر والعميق لما تضمنته من عبر ومثلات.

ويبدو أن الإبراهيمي قد أوتي ذهنية متفتحة منذ صغره لم تزدها الأيام إلا تفتقا، إذ لم يكن ميالا إلى أساليب المبالغات في تقديم السيرة النبوية، والتي كان للشعراء اليد الطولى فيها، وفي ذلك يقول: «قرأت كثيرا مما فاضت به قرائح الشعراء من القصائد المولدية التي يُذكّرون بها المسلمين في نشأة دينهم، ويجددون عهدهم فيها بميلاد نبيهم، فوجدت كل أولئك الشعراء لا يخرجون عن دائرة تقليدية اتبع فيها آخرهم أولهم، وهي ذكر الخوارق التي صحبت مولده ﷺ، ثم يخلصون إلى مدحه والتوسل به»... إلى أن يقول: «وكنت قليل التأثر بتلك المولديات لسلوكها مسلكا واحدا في الوصف والمدح والإكثار من الخوارق وحشر الغرائب -ما يُعقل وما لا يعقل- مع أن إثبات تلك الغرائب من طريق الإسناد والرواية مما لا مطمح فيه»[٣٠].

وليست المشكلة فيما يقوله الشعراء، لأن هذا شأنهم عادة إلا من رحم الله، ولكن هذا المنهج في تناول السيرة النبوية كان ديدن كثير من الدارسين والكتاب أيضا، فقد جعلوها عضين، فأخذوا منها جوانب وتركوا أخرى، وما أخذوه منها لا يمثل الأولويات أوالضروريات، بل هو أقرب إلى الكماليات والتحسينيات، فقد انصب أكثر اهتمامهم على الشمائل النبوية، وليس في ذلك ما يُعاب من حيث المبدأ، فإن الشمائل فرع من فروع السيرة إلى جانب الدلائل والخصائص، وهي

٢٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٣/ ٤٧٣.
٣٠- المصدر نفسه، ١ / ٣١٥.

مجال كبير للقدوة لمن أحسن استثمارها، ولكن ما يعاب على المدرسة التقليدية، وما أخذه عليها الإبراهيمي أنها تأخذ بطرف من تلك الشمائل، وهو الأوصاف الذاتية وما هو متعلق بالهيئة التي خلق الله عز وجل عليها نبيه ﷺ، مما ليس للعبد فيه اختيار وليس محلا للاقتداء، وتغفل أخلاقه النفسية وهي المقصودة بالقدوة، وحين تتطرق إلى شيء من آدابه العملية فهي تقتصرعلى ذكر لبسه وأكله وشربه ونومه وما له علاقة بسننه وعاداته. يقول البشير في بيان ذلك: «ألستم ترون أن أكثر المؤلفين في السير يصرفون اهتمامهم إلى الجهات التي لا محل فيها للاقتداء الذي يزكي النفس، أكثر مما يصرفون إلى الجهات التي تزكي النفس وتطبعها على الخلال النبوية، يهتمون بالمواطن السطحية البشرية مثل كيفية لبسه وأكله وشربه ونومه وملابسة أهله، ويغفلون المكامن الروحية الملكية مثل تعلقه بالله ومراقبته له وتأديته الأمانة الشاقة وصبره وشجاعته وتربيته لأصحابه، وتدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تكمل، وعلى السمع والطاعة للحق وفي الحق، وعلى التعاون والتناصح والتحابب والتآخي والاتحاد»[٣١].

فلابد إذن من أولويات في مدارسة السيرة النبوية، فيكون الاهتمام أولا بالضروريات التي تحتاجها الأمة من هدي النبوة من مثل ما ذكر الإبراهيمي، وهو ما يجعل من السيرة نبراسا وقدوة، أما حصر الاهتمام في الجانب البشري من حياته ﷺ –وإن كان له دوره التربوي في صياغة شخصية المسلم وبنائها– فإنه تعطيل لفقه الأولويات والاستجابة لمتطلبات الواقع .

فالذي يهم من السيرة النبوية – في تقدير الإبراهيمي– هو ما يزكي النفس ويربيها على أخلاق رسول الله ﷺ، سواء في علاقته مع ربه، أو جهاده وصبره، أو جهوده في تربية أصحابه وهي الجوانب الحيوية من السيرة والتي تحتاج إلى استلهام قبل الحديث عن عاداته وسننه، وهي مما لا يستغني عنه المسلم في حياته.

٣١- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ص ٤ / ١٤٦.

وفي مناسبة أخرى عاد الإبراهيمي ليرشد الكتاب والدارسين إلى ما هو أهم في سيرة رسول الله ﷺ وينتقد المنهج الخطأ في دراستها، فقال: «نتدارس سيرته ﷺ التي هي التفسير العملي للإسلام فلا ندرس إلا جانبها البشري من كيفية أكله ولباسه ونومه، لا جانبها الملكي من صبره وجهاده وتربيته لأمته وبناء الدولة الإسلامية»[٣٢].

فالإبراهيمي يدرك الأولويات في التعامل مع السيرة النبوية، ويحدد مجال القدوة فيها، فإذا هو الجانب العملي التطبيقي الذي مارسه النبي ﷺ.

هكذا كان الإبراهيمي يفقه دور السيرة النبوية وأهميتها في علاج أدواء الأمة وعللها، ولذلك كان يرى أن المنهج الأسلم في تدريسها والكتابة فيها تقديم مجالات القدوة فيها كجهاده وصبره ومنهجه في تربية أصحابه، فهذا ما تحتاجه الأمة، وهذا ما يساعدها على الخروج من أزمتها، أما إبراز الجانب البشري من سيرته ﷺ فلا شك في أهميته، ولا يمكن الحَطُّ من قدره، ولكنه يأتي في المرتبة التالية، وبذلك تتكامل السيرة النبوية، وتدرك أهميتها، وتتحدد أولوياتها.

صفوة القول أن الإبراهيمي أعاب على المدرسة التقليدية قَصْرَ جهدها في دراسة السيرة النبوية على الجانب البشري منها «مما لا يثير في النفس حركة ولايحملها على قدوة ولا يستفزها إلى عمل»[٣٣]، وأغفلت مقصدها المهم وهو الجانب العملي والتربوي فيما له علاقة بجهاده وشجاعته وصبره وغيرها من الأخلاق النبوية التي لا غنى للأمة عنها إن هي أرادت أن تحيي ميراث نبيها وتسترجع عزها.

٣٢- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤ / ١٤٣.
٣٣- المصدر نفسه، ١ / ١٣٥.

المطلب الثالث: نقد تحويل أحداث السيرة النبوية إلى قصص حشْوية

تمتاز سيرة الرسول ﷺ عن بقية السير –بما في ذلك سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام– أنها السيرة الوحيدة التي نُقلت إلينا مفصلة وعبر مصادر موثقة، ولذلك كانت أحداثها معلومة بدقة، فهي تنقل إلينا سيرة نبي أوتي من المواهب والمنح ما بلغ فيه الكمال البشري، فقد خلقه الله عز وجل في أجمل صورة وأبهاها، ومنحه من الأخلاق ما بلغ فيه درجة العظمة، فهو كامل الخَلق والخُلق ﷺ، أرسله الله جل وعلا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله[٣٤].

وهكذا فإن نبينا ﷺ أوتي الكمال في كل شيء، ومع ذلك فإنه يظل بشرا تجري عليه سنن الله تعالى في الخلق، ويجب أن تدرس سيرته في إطار الوسطية بلا غلو ولا جفاء. ولأن هذه السيرة العطرة على وضوحها وصفائها تعرضت لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فرفعه أقوام إلى الحد الذي صبغوا عليه من الصفات والأفعال ما لا يليق إلا بالخالق سبحانه وتعالى، وزعموا أنهم بذلك يرفعون من قدْر رسول الله ﷺ، ويزيدونه تشريفا وتعظيما، وكذبوا، فإن «نبينا ﷺ غني لمدحة التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، والآحاد النظيفة الأسانيد عن الواهيات»[٣٥].

وجافى أقوام آخرون في شأنه ﷺ فأعطوا صورة مشوهة لسيرته العطرة بما يزهد في التأسي به، وكلا الفريقين جانب الصواب. فقد نهى ﷺ عن الغلو في مدحه وإطرائه فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقالوا: عبد الله ورسوله)[٣٦]، والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح والثناء. وعن

٣٤- انظر في تفصيل هذه المسائل لسليمان الندوي، كتاب: «الرسالة المحمدية» فقد أحسن وأجاد في بيان خصائص سيرة النبي ﷺ.

٣٥- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٢١٦، تحقيق: الأرنؤوط، ومحمد نعيم عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت / ١٤١٧هـ.

٣٦- رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها» رقم ٣٤٤٥، ص: ٥٨٠.

أنس أن رجلا قال للنبي ﷺ: ياسيدنا وابن سيدنا وياخيرنا وابن خيرنا، فقال النبي ﷺ: (ياأيها الناس: قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله ورسول الله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله)[٣٧].

ورغم هذا النهي الصريح من النبي ﷺ عن إطرائه والمبالغة في مدحه والثناء عليه، فقد أبى أقوام –ادعوا حبه ﷺ– إلا الغلو ومجاوزة الحد في مدحه، لا بل وصلوا إلى حد رفعه إلى درجة الألوهية –والعياذ بالله– وكان مما ابتليت به الجزائر في حقبة الاستعمار طوائف من الطرقية كان هذا شأنها، تجتمع في المناسبات المختلفة –خاصة الموالد– وتطلق العنان للمدائح الشعرية والنثرية الموغلة في الغلو، وتشوه أحداث السيرة النبوية بقصص خرافية تستهوي الدهماء والعوام ناهيك عما يتخلل تلك الاحتفاليات من مناكر مختلفة، لا يقرها شرع ولا يقبلها عقل.

وقد كان للإبراهيمي –وجمعية العلماء عموما– صولات وجولات في مجابهة الطرقية وفضح مناكرها، ومن ذلك نقده للطريقة المشوهة التي تُقدم بها سيرة النبي ﷺ، فيقول: «لا نريد للمسلمين أن يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الشائعة التي يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوهة، فإن ذلك الطراز لا يتفق مع شرف الذكرى وجلالها، وإن القصص المولدية الحشوية[٣٨] والخطب

٣٧- رواه أحمد، باب مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك، رقم: ١٣٥٢٩، وروى أبو داود مثله كتاب باب كراهية التمادح رقم: ٤٨٠٦.

٣٨- يوظف الإبراهيمي كلمة حشوية في هذا المقام بمعناها اللغوي، كما جاء في اللسان: «الحشو من الكلام: الفضل الذي لا يعتمد عليه، وكذلك هو من الناس، وحشوة الناس رذالتهم» لسان العرب: ابن منظور، ١٤ / ١٨٠. دار صادر بيروت.
وبمعناها الاصطلاحي الذي يراد به رواة الحديث من غير تمييز لصحيحها من سقيمها، قال ابن الوزير: «فإن الحشوية سموا بذلك لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ؛ أي يدخلونها فيها وليست منها» الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم: أبو عبد الله محمد= =بن إبراهيم الوزير، ١ / ١٢٠، دار المعرفة بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
ولا يقصد الإبراهيمي الاصطلاح الشائع عند الشيعة الذي يطلق على أهل السنة والسواد الأعظم من هذه الأمة، وينبزون به كل من لم يقل بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي ﷺ.

المنبرية الرائجة هما سبب تنويم هذه الأمة وأصل بلائها»[٣٩].

وحتى لا يكون نقد الإبراهيمي مجرد تجنٍ وتَقَوُّل بلا دليل، فقد نقل إلينا مثالا حيا عن تلك القصص الحشوية شهدها بنفسه وفيها يقول: «عرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوي، يقتصر فيه على التجمير والتقصير، وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة، ولقد حضرت – منذ سنوات - حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت عالما أزهريا يقرأ على الناس قصة مولدية – لعلها مولدية المناوي- فسمعت من بعض ما كان يقوله قوله: إن النبي ﷺ كان يرى من أمام كما يرى من خلف بعينين خلقهما الله في قفاه... وكان بجنبي فقيه مقرئ، خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسرَّ إليَّ على سبيل الدعابة قوله: أبى الله إلا أن نكون أسبق منكم لكل شيء فعندنا من هذه (الماركة) من العلماء من يقول ويكتب: إن النبي ﷺ لم يولد من السبيل المعتاد»[٤٠].

بمثل هذا الكلام الخرافي وتلك القصص الخياليةكانت تقدم سيرة النبي ﷺ، وبذلك تحولت السيرة التي أرادها الله عز وجل أسوة وقدوة للناس، إلى هراء، يلقيه بعض من ينتسب إلى العلم ويُحسب على مؤسسة عريقة، فماذا ترك أمثال هؤلاء للعوام والدهماء من الناس؟ وهكذا فبدل أن تكون سيرة رسول ﷺ معيارا ونورا وهداية، إليها يرجع الناس، وبها يستنيرون، حَكَّموا فيها عقولهم وأخضعوها لأهوائهم، فجاءت على قياس من عقولهم الجامدة، وعلى نحو من هممهم الخامدة، ومن نمط عاداتهم السخيفة، فاقتصرت على تلك القصص الحشوية، فإذا بالسيرة العظيمة حديث خرافة.

كانت هذه وقفات للإبراهيمي مع طائفة الغلاة التي شوهت السيرة النبوية

٣٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ١ / ٣٣١.
٤٠- المصدر نفسه، ١ / ٣٣٣-٣٣٤.

فحشتها بالقصص الخرافية والأخبار الموضوعة. أما الطائفة الثانية التي وجه إليها نقده، فهي تلك التي تناولت أحداث السيرة الثابتة بشيء من الجفاء وفسرتها تفسيرات خاطئة، وهذه – وإن كانت أقل خطورة من سالفتها- إلا أنها بدورها أسهمت في تشويه صورة السيرة النبوية، وأعطت للمناوئين ذريعة للتقوُّل والانتقاص من شخص رسول الله ﷺ، وقد ذكر الإبراهيمي أنموذجا من ذلك التقديم المتخاذل وفيه يقول: «إنها لا تذكر لهم من تاريخ نبي الإسلام ﷺ إلا ما ينفر النفوس البدائية منه مثل أنه كان يتيما وأنه كان يرعى الغنم، وأنه كان فقيرا، وأنه تزوج امرأة كبيرة وهو شاب، وهذه الجمل إذا لم تُفَسَّر بمعانيها العليا فسَّرَتْ نفسها بمعانيها السفلى في نفوس الصغار وهذا تنفير متعمد»[٤١].

فما ذُكر من يتم النبي ﷺ ورعيه الغنم وفقره وزواجه من خديجة التي تكبره سنا، كلها حقائق تاريخية لا شك فيها، فإن يتمه وفقره ذكرا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[٤٢]، ورعيه للغنم ثابت كما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[٤٣]، فليست المشكلة في ثبوت هذه المسائل، ولكن في تفسيرها وبيان حِكمها ودلالاتها، فإذا أُحسن تفسيرها وأُبرزت حكمها ودلالاتها كانت معاني سامية ومُثلا عليا، أما إذا فُسرت على النحو الذي ذكر الإبراهيمي فإنها تسيئ إلى السيرة النبوية وتنفر الناس منها.

فليس في سيرة النبي ﷺ ما يُستحيا من ذكره، فهي نور على نور، وكل حادثة فيها لها حكمة علمها الناس أو جهلوها، وإلا كيف يكون هذا النبي أسوة للناس، إلا أن يكون أوتي الكمال في كل شأن من شؤونه ﷺ.

٤١- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٢ / ٣٧٨.
٤٢- سورة الضحى : آية ٦-٨.
٤٣- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم ٢٢٦٢، ص: ٣٦٠. ومالك في الموطأ كتاب الجامع ، باب ما جاء في أثر الغنم، رقم: ١٧٧٠، ص٦٧٩.

هذه أهم المآخذ التي سجلها الإبراهيمي على المدرسة التقليدية في تحويلها أحداث السيرة النبوية إلى قصص حشوية، أو تفسيرها تفسيرا سطحيا ساذجا بعيدا عن معانيها السامية وحكمها البالغة، وهو في ذلك كله يذود عن حياض السيرة النبوية العطرة لينفي عنها تحريف الغالين وتأويل الجاهلين.

وخلاصة هذا المبحث أن الإبراهيمي انتقد المناهج التقليدية في التعامل مع السيرة النبوية، وذلك من خلال نقائص ثلاثة هي:

١- نقد إهمالهم للقرآن الكريم كمصدر أول للسيرة النبوية، وقد تبين أن إغفال هذا المصدر الأساس واعتماد مصادر أخرى أقل أهمية، أفقد السيرة روحها، وزهّد الناس فيها.

٢- نقد تركيزهم على الجانب البشري في السيرة وإهمالهم للجانب العملي والتربوي، وقد كان من نتائج ذلك؛ الاهتمام بجوانب ليست محلا للاقتداء، أو جوانب أخرى مهمة لكنها ليست ذات أولوية، أما الأهم والمتعلق بأخلاقه النفسية ومنهجه العملي والتربوي فلم يحظيا بالاهتمام الكافي، وبذلك لم يتحقق الهدف الأسمى من مدارسة السيرة النبوية وهو إبراز القدوة الحسنة.

٣- نقد تحويل أحداث السيرة النبوية إلى قصص حشوية وهنا وجه الإبراهيمي نقده لطائفتين من المشوهين للسيرة النبوية أولها الغالين الذين حولوا السيرة إلى قصص خرافية ومبالغات لا أساس لها، وثانيها الجافين الذين أوَّلوا أحداثها تأويلات خاطئة تنفر الناس وتعطي ذريعة للأعداء للطعن فيها.

المبحث الثالث:

نماذج من أحداث السيرة النبوية ومنهج الإبراهيمي في التعامل معها

قبل البدء في ذكر نماذج من أحداث السيرة النبوية وبيان منهج الإبراهيمي في التعامل معها، يحسُن أن أشير إلى مسائل حول إسهام البشير في الكتابة حول السيرة النبوية:

١- لم يخص الإبراهيمي السيرة النبوية –ولا غيرها – بمؤلف فمجمل آثاره التي بلغت خمسة مجلدات هي في الأصل مقالات ومحاضرات وخطب ورسائل وقصائد وفتاوى كتبها أو ألقاها أو أملاها بين سنتي ١٩٢٩ و١٩٦٤ أي لمدة ٣٥ سنة، فقد ذكر الإبراهيمي في ترجمة حياته أنه ألف كتبا ورسائل بلغت ثلاثة عشر مؤلفا، عشرة منها في قضايا لغوية من نحو وصرف وبلاغة، ورواية تحت عنوان: كاهنة الأوراس، كتبها بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال، ودراستان شرعيتان الأولى: حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام، والثانية: شعب الإيمان، وأعظم ما دوَّن الإبراهيمي ملحمة شعرية رجزية نظمها حين كان منفيا بآفلو، وقد بلغت ستة وثلاثين ألف بيت من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه، وقد تضمنت فنونا من المواضيع ذكرها الإبراهيمي مفصلة في خلاصة حياته[٤٤]، وقد كان للتاريخ الإسلامي عامة والسيرة النبوية خاصة حضور في تلك الملحمة كما ذكر الإبراهيمي في رسالة كتبها إلى الأستاذ إبراهيم الكتاني سنة ١٩٤٥ وقد ضمنها مقتطفات منها بلغت سبعة وعشرين بيتا [٤٥]. ولكن كل هذه المؤلفات وغيرها ضاعت لأسباب ذكرها نجل الشيخ في مقدمته للآثار فقال: «ولئن كانت هذه الآثار المطبوعة ضئيلة في مجملها بالنسبة إلى حياة الشيخ الحافلة، فإن كثيرا ضاع،

٤٤- انظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ٢٨٨-٢٨٩.
٤٥- انظر: المصدر نفسه، ٢ / ١٥٠-١٥١.

وكثيرا مما ألقاه من دروس وخطب ومحاضرات لم تسجل لأنه كان يلقيه ارتجالا، ولم تتسن كتابة إلا أقل القليل منه، وكانت له مؤلفات وكتابات مخطوطة حول العديد من المواضيع في الدين واللغة والأدب والاجتماع ضاعت إبَّان حرب التحرير، إما عند بعض تلامذته أو في بيته بالجزائر العاصمة حين اقتحمه الجيش الفرنسي سنة ١٩٥٧ -وهو بالمشرق العربي- وعاث في مكتبته تخريبا ونهبا، ففقدت مخطوطاته ومعظم كتبه»[٤٦]. ومع ذلك فإن الإبراهيمي لم يشغل نفسه بالتأليف والكتابة، لأنه شغل بأمر آخر أهم يحدثنا عنه فيقول: «لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب»[٤٧].

٢- تناول الإبراهيمي خمسة أحداث من السيرة النبوية أسوقها حسب ترتيبها التاريخي:

- المولد النبوي.
- الإسراء والمعراج.
- الهجرة إلى المدينة.
- غزوة بدر.
- فتح مكة.

٤٦- د/ أحمد طالب الإبراهيمي، مقدمة آثار الإبراهيمي، ١ / ٦.
٤٧- المرجع نفسه، ص ٥ / ٢٨٨.

والملاحظ أن البشير ركز اهتمامه حول أحداث محددة تمثل ذكريات ومناسبات تحييها الأمة عادة كل سنة، وقد برر سبب اهتمامه بتلك المناسبات وبيَّنَ المقاصد التي يهدف إليها من ذكرها بقوله: «إن هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية معظم تلامذتها من الدهماء الذين حرموا المدارس النظامية. وإذا كان هذا الصنف كثيرا في الأمم فمن الرحمة به وحُسن الرعية له ومن الحكمة في استصلاحه وتربيته أن يوسع له في هذه الاحتفالات ويكثر له فيها وأن تبتكر له مناسبات لإقامتها»[٤٨].

والحق أن الإبراهيمي كتب هذا الكلام بمناسبة حفل اختتام الشيخ عبد الحميد ابن باديس لتفسير القرآن الكريم، وقد سقناه في هذا المقام لارتباطه بإحياء المناسبات، ومنها ما ذكرنا من أحداث السيرة النبوية.

٣- أغلب ما كتب الإبراهيمي عن السيرة النبوية كلمات ألقيت في مناسبات مختلفة، فمن جملة ثماني مقالات نجد ثلاثا منها ألقيت في حفلات بالجزائر والقاهرة، وكلمتان أذيعتا عبر إذاعة صوت العرب بالقاهرة، والباقي لم يرتبط بمناسبة، والنتيجة أن أغلب المقالات أصلها دروس وكلمات ألقيت في مناسبات مرتبطة بأحداث السيرة النبوية.

قصدت من هذا التوضيح الإشارة إلى أن تعامل الإبراهيمي مع السيرة كان في سياق مهمته التربوية والإصلاحية التي كان يضطلع بها، وبذلك جعل من السيرة النبوية أحد أهم وسائله في تلك المهمة.

أعود بعد تسجيل هذه الملاحظات للبدء في عرض نماذج من أحداث السيرة وبيان منهج الإبراهيمي في التعامل معها، وذلك من خلال خمسة مطالب، يرتبط كل مطلب بحدث من الأحداث المذكورة في الملاحظة الثانية.

٤٨- المرجع السابق، ص ١ / ٣٢٨. وانظر أيضاً ١ / ٣٣٤.

المطلب الأول: المولد النبوي (ميلاد دين وإخراج أمة)

أوْلى الإبراهيمي ميلادَ النبي ﷺ عناية فائقة إذ خصه بثلاث مقالات، وذلك لما لهذا الحدث من أهمية كبيرة في حياة البشرية كلها، فهو –في تقديره– «ليلة لم يولد فيها رجل، ولو كانت كذلك لما كان لها فضل على باقي الليالي، ولكنها ليلة ولد فيها الهدى بأكمله والرحمة بأجمعها، وإن الإسلام الذي جاء به محمد ابن عبد الله لهو الهدى الكامل لبني آدم كلهم، والرحمة الشاملة لجميعهم، وإن العالم في ذلك الوقت كان متعطشا ومتشوقا إلى رحمة الله لما أعوزته الرحمة من أفراده»[٤٩].

بل إن الإبراهيمي يرى أن البشرية ظلت منذ فجر التاريخ تترقب مبعث هذا النبي الذي سينتشلها من الضلال والضياع، فقد تفاقمت أمراضها ولم يُجد عنها جهود الأنبياء السابقين حتى بُعث النبي الخاتم ﷺ فكان الطبيب المداوي، يقول الإبراهيمي: «إن القافلة الإنسانية مازالت منذ آدم تتخبط في ظلمات الجهل والشر والفوضى، تسير فلا تسير إلا إلى الهلاك، وتقيم فلا تقيم إلا على الضيم، وطالما ارتفعت أصوات الحق من أطرافها من المرسلين والحكماء، فضاعت تلك الأصوات بين غوغاء الباطل، أعضلت أمراضها، وعجز أطباؤها، واستفحل الشر بين أفرادها وتخاذل العقل أمام الوهم، وتهافتت الحقائق أمام الشبه، وطغت الحيوانية بما فيها من تكالب ونهم وغرائز سافلة، فجاء العدوان والظلم والتناحر والقتال والمطامع. فكانت على كل ذلك في أشد الحاجة إلى هاد يهديها إلى سبيل الحق وإلى حام يحميها من عدوان الباطل، وكان من قدر الله أن يكون ذلك الهادي محمدا (ﷺ) ودينه الإسلام، وكانت ليلة الميلاد بذلك غرة في الليالي الدهم»[٥٠].

إن الإبراهيمي لا ينظر إلى ليلة الميلاد تلك النظرة السطحية التي تستهويها

٤٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ١/ ٣١٦.
٥٠- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أخبار المعجزات والإرهاصات التي بالغت بعض كتب السيرة في سردها، أو تلك التي تهول من الميلاد نفسه فتجعله حدثا أقرب إلى الخيال بما نسجت حوله من قصص وروايات لا سند لها، بل نظر إليها نظرة أعمق تكشف حقيقة ميلاد النبي ﷺ وسره، إن السر كما يفهمه الإبراهيمي «هو أن هذه الليلة ولد فيها الهدى الذي محق الضلال، وولد فيها الحق الذي محا الباطل، وولد فيها النور الذي نسخ الظلام، وولد فيها التوحيد الذي أمات الوثنية، وولدت فيها الحرية التي انتقمت من العبودية، وولد فيها التساوي الذي قضى على الأثرة والأنانية، وولد فيها التآخي الذي أبطل البغي والعدوان، وولدت فيها الرحمة التي قضت على القسوة والجبروت وعلى البخل وآثاره، وولدت فيها الشجاعة التي تنصر الحقيقة وتمهد الطريقة، وبالإجمال ولد فيها الإسلام وما أدراكم ما الإسلام»[٥١].

أين هذا الفهم العميق والوصف الدقيق مما تمتلئ به مجالس الاحتفالات المولدية من قصص حشوية وأخبار خيالية؟

لم يكن ما ذكر الإبراهيمي من معان حول حقيقة الميلاد وسره مجرد خواطر، أو صنعة لفظية، بل هي قناعة متأصلة لم يحد عنها قيد أنملة، فقد عاد بعد أربعة عشر عاما ليقرر المعاني نفسها، فحديثه الأول كلمة ألقيت في أفريل سنة ١٩٣٨ بتلمسان، وفي نوفمبر سنة ١٩٥٢ بالقاهرة خاطب مستمعيه –بحضور رئيس جمهورية مصر آنذاك محمد نجيب– فقال: «ميلاد محمد ﷺ الذي جاء بالهدى ودين الحق، هو مولد لكل ما جاء به محمد من الهدى ودين الحق، فهو مولد للصلاح والإصلاح والهداية والرحمة والخير والعدل والإحسان والأخوة والمحبة والرفق...

ومولد محمد هو الحد الفاصل بين حالتين للبشرية: حالة من الظلام جللها قرونا متطاولة، وحالة من النور كانت تترقبها، وقد طلع فجرها مع فجر هذا

٥١- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ١/ ٣١٧.

اليوم، فميلاد محمد ﷺ كان إيذانا من الله بنقل البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن العبودية إلى الحرية، وبعبارة جامعة من الشر الذي لا خير فيه إلى الخير الذي لا شر معه...

هذه هي المعاني التي يجب أن نستشعرها حينما نذكر المولد، وحينما نحتفل به، أما ما عدا ذلك مما نفعله ونقوله فزوائد لا قيمة لها في العقول ولا أثر لها في النفوس»[٥٢].

هذا الذي يفهمه الإبراهيمي من ميلاد النبي ﷺ، وهذا الذي يريد أن ترتقى إليه مدارك الناس وهم يحيون ذكرى ميلاده في كل عام، لا أن يظلوا رهائن تقاليد بالية حولت المولد النبوي إلى مناسبة للهو واللعب والفرح والطرب والاجتماع على موائد الأكل والشرب.

إن المعاني التي ذكرها البشير هي وحدها الكفيلة بإعطاء مغزى للمولد النبوي، لذلك وجدنا الرجل يلح على الارتقاء إلى مستوى الحدث، فيقول: «لو فهمنا المولد المحمدي بهذه المعاني لكان إظلاله لنا في كل عام تجديداً لهممنا، وإيقاظاً لمشاعرنا، وصقلاً لأذهاننا، وجلاءً لأرواحنا، ولكانت آثار ذلك سمواً في أرواحنا وسداداً في آرائنا، وتحولاً إلى الخير في أحوالنا، وجمعا لكلمتنا على الحق، وتوحيدا لصفوفنا في النوائب»[٥٣].

إن الذي يربط المسلمين بنبيهم أكبر من أن يكون ليلة في السنة وليتها كانت مناسبة لتجديد الارتباط به، ولكنها تحولت بسبب ما اعتورها من بدع ومنكرات إلى ليلة لا يزداد فيها كثير من المسلمين من نبيهم إلا بعدا، فلا خير في تلك الحفلات الصاخبة وتلك المواعظ الكاذبة، طالما روح المولد غائبة.

٥٢- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤/ ١٤٣.
٥٣- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إن البشير الإبراهيمي يستصرخ المسلمين الغافلين لفهم معاني مولد سيد المرسلين فيقول: «أيها المسلمون: قبل أن تقيموا حفلات المولد أقيموا معاني المولد، وتدرجوا من المولد المحمدي الذي هو مولد رجل إلى البعثة المحمدية التي هي مولد دين نسخ الأديان لأنه أكمل الأديان، وهناك تضعون أيديكم على الحقيقة التي تهديكم إليها هذه الذكرى.

حاسبوا أنفسكم في كل عام من أين انتقلتم وإلى أين وصلتم... واذكروا أن صاحب هذه الرسالة بُعِثَ بالعزة والكرامة والعلم والقوة، فكونوا أعزة وكونوا أحرارا وكونوا أقوياء، واعرفوا محمدا بدينه وقرآنه وسيرته لا بمولده، وأقيموا دينه، ولا عليكم بعد ذلك أن تقيموا مولده أو لا تقيموه.

إن محمدا ﷺ يطالبكم بإقامة الدين لا إقامة المولد، وإن دينكم دين الحقائق والأعمال والنظم فارجعوا إلى تلك الحقائق وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»[٥٤].

إن هذا الكلام العميق لا يقوله إلا دارس للسيرة النبوية دراسة متأنية، فقه معانيها، وسبر أغوارها، وهو في ذلك يصدر من مشكاة الوحي، فالله عز وجل حين ذكر منته على المؤمنين قصرها على بعثة نبيه لا على ميلاده فقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٥٥].

إن التعلق بالمولد وتفريغه من معانيه هو عودة إلى الضلال المبين، وهو تخلٍّ عن رسالة التلاوة والتزكية والتعليم التي بعث بها النبي ﷺ.

٥٤- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤/ ١٤٤.
٥٥- سورة آل عمران: آية ١٦٤.

إن المطلوب من المسلمين –إذا أرادوا أن يجددوا عهدهم مع نبيهم الكريم ﷺ– أن «يأخذوا عنه كيف كان يزكي وكيف كان يعلم وكيف كان يجاهد الكفر قبل أن يجاهد الكفار، ويحارب المعاني الفاجرة قبل أن يحارب الفجار، وكيف كان يغرس الفضيلة ويتعهدها بالسقي والرعاية حتى تنمو وتورق وتظل وتثمر، وكيف كان يقلع الوثنية ليزرع التوحيد، ويهدم الضلال ليبني الهدى، وكيف كان يهدي بالقرآن للتي هي أقوم، وكيف كان يمهد للحق بالقوة، ويضع القوة في خدمة الحق... وكيف كان يؤلف بين سنن الله في الدين وسننه في الكون ليربط الأسباب بالمسببات والدين بالدنيا، ويزاوج بين السعادتين فيهما»[٥٦].

إن القيام بهذه المهام النبيلة هو عنوان الانتماء الحقيقي لهذا الدين، وهو مصداق التأسي بالنبي الكريم ﷺ، وكل ما عداه من عكوف على إحياء المناسبات بعيدا عن استشعار معانيها والارتقاء إلى مغازيها هو انتماء كاذب، وتأس خاطئ، وللخروج من هذا الوضع فإن الإبراهيمي يرشد الأمة إلى السبيل الوحيد للعودة إلى جادة الصواب وهو إحياء هدي السلف الصالح في حبهم رسول الله ﷺ الذي كان أساسه الاتباع لا الابتداع فيقول: «أما الحب الصحيح لمحمد ﷺ فهو الذي يدع صاحبه عن البدع ويحمله على الاقتداء الصحيح كما كان السلف يحبونه، فيحيون سننه ويذودون عن شريعته ودينه، من غير أن يقيموا له الموالد وينفقوا فيها الأموال الطائلة التي تفتقر المصالح العامة إلى القليل منها فلا تجده»[٥٧].

إن إمكانية التواصل مع رسول الله ﷺ سهلة ميسورة وأسبابها لا تزال –بحمد الله– قائمة، فالذي يربط بين الأمة ونبيها هو القرآن الكريم حبل الله الممدود، ما عليها إلا أن تأخذ بطرفه ليوصلها بالنبي ﷺ، بهذه المعاني خاطب الإبراهيمي الأمة فقال: «أيها الإخوان: إن نبينا منا قريب لو جعلنا الصلة بيننا وبينه حبل الله القرآن،

٥٦- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤/ ١٤٥.
٥٧- المصدر نفسه ٢/ ٣٤١.

فقد تركه فينا ليكون النور الممتد بيننا وبينه، وقد كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ويقف عند حدوده ويصنع أفعاله وتروكه من أوامره ونواهيه وينحت من معدنه تلك الآيات التي ربى بها نفسه وراض عليها أصحابه، ثم تركها كلمة باقية فينا وحجة بالغة لنا أو علينا وقد شرفنا ﷺ تشريفا يبقى على الدهر وشهد لنا شهادة نتيه بها على الغابرين إذ قال: (أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون من بعدي)[58]»[59].

هذا الذي فقهه الإبراهيمي من حادثة ميلاد النبي ﷺ، فهي ليست مجرد ميلاد رجل في تاريخ ومكان محددين، بل هي أعمق من ذلك، فهي -في تقديره- ميلاد دين وإخراج أمة، ولذلك حين تناولها بالدرس والتحليل ضرب صفحا عن حيثياتها، فلم يحدثنا لا عن تاريخ ولا مكان ميلاده، ولا شغلنا بذكر حوادث سبقت أو صحبت أو لحقت حدث ميلاده، وغير ذلك مما يتعلق به كتاب السيرة عادة ويملؤون به مؤلفاتهم، ولكنه انتقل بنا في رحلة عميقة يستكنه معاني الحادثة ويسبر أغوارها، ويضع أيدينا على مواطن القدوة فيها، وذلك هو المنهج الذي سلكه البشير في التعامل مع أحداث السيرة، وما يزال فيما يلي من أحداث مزيد بيان.

المطلب الثاني : الإسراء والمعراج (وراثة النبوة وإسلامية بيت المقدس)

الحدث الثاني من أحداث السيرة النبوية الذي استوقف الإبراهيمي هو «الإسراء والمعراج»، ولم تكن تلك الوقفة كما أَلِفَ كُتَّابُ السيرة من استعراض

٥٨- الحديث رواه مسلم بلفظ: «وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: وألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعد» كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء رقم: ٥١٤ ص ١٢٢. ومالك في الموطأ: باب جامع الوضوء رقم: ٥٧ ص: ٢٩-٣٠. والنسائي كتاب الطهارة باب حلية الوضوء رقم: ١٥٠ ص: ٣١. وابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر الحوض رقم: ٤٣٠٦ ص: ٦٥٤.

٥٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤ / ١٤٥.

مجمل أو تفاصيل ما حدث في تلك المعجزة، سواء في رحلتها الأرضية أو رحلتها السماوية، ولكنه نحا منحى آخر، إذ لم يكن مقصوده القصة لذاتها ولكنه ساقها في معرض الدفاع عن إسلامية فلسطين أمام مزاعم اليهود بأنها ملكهم وأرضهم الموعودة، وبعد أن تكلم مطولا حول تاريخ اليهود منذ القديم وتتبع أخبارهم انتهى إلى نتيجة مؤداها أن اليهود: «لم يشهد لهم التاريخ موقف دفاع عن حوزة، ولا سَجَّلَ لهم صفحة واحدة في حماية حمى أو ذود عن حرمة وطن حازوه في ظل النبوة، ذلك أن اليهود لا وطن لهم ولا وطنية في طباعهم بمعناها المعروف عند الأمم»[٦٠].

بعدها انتقل البشير إلى الحديث عن إسلامية فلسطين، ودون توغل في التاريخ وقف عند حادثة الإسراء وما انطوت عليه من دلالات على وراثة النبوة وإسلامية بيت المقدس، فكان ذلك كافيا كدليل على إسلامية فلسطين.

وقف بداية عند سر اختيار بيت المقدس لتكون نهاية للإسراء وبداية للمعراج، فلاحظ أن الأمر كان مقصودا لذاته ولم يكن مجرد محطة، إذ «لو شاء الله لكان المعراج بعبده محمد من مكة التي هي موطنه، ولكن كانت له في هذه الرحلة الأرضية حكم ولنا فيها عبر، فقد كانت رمزا إلى أن مُلك الإسلام سيتسع حتى يبلغ في مرحلته الأولى ممالك النبوة قبله ومواطنهم ومواطئ أقدامهم ومدافنهم، وسينشر بها هدايته وسيبسط عليها حمايته وكذلك وقع، ومواريث النبوة لا يستحقها إلا الأنبياء والمضطلعون بها من أممهم، وقد قال ﷺ: (زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها)[٦١]»[٦٢].

٦٠- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤/ ٣٩٦.

٦١- الحديث رواه مسلم كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض رقم: ٧٦٥٨ ص: ١٢٥٠. وأبو داود كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها رقم: ٤٢٥٢ ص: ٦٤١. والترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ رقم: ٢١٨١ ص: ٦٣١. وابن ماجه كتاب الفتن باب ما يكون من الفتن رقم: ٣٩٥٢ ص: ٥٩٧. وأحمد مسند الأنصار من حديث ثوبان رقم: ٢٢٣٩٥، ٣٧/ ٧٨..

٦٢- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤/ ٣٩٧ – ٣٩٨.

ففي الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بشرى للنبي ﷺ وأمته بفتح بيت المقدس، وهو ما تحقق للمسلمين على أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبذلك تسلموا قيادة القبلة الأولى التي ظلوا يصلون إليها منذ فرضت الصلاة إلى الشهر السادس عشر بعد الهجرة، حيث تحولت القبلة إلى المسجد الحرام، وبقيت العلاقة بين المسجدين قائمة وستظل، فالمسجد الأقصى هو القبلة الأولى وهو مسرى رسول الله ﷺ وهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال كما صح في الحديث الشريف[٦٣].

ولم يكن فتح بيت المقدس مجرد فتح لأرض كما هو حال كثير من البلاد المفتوحة في خلافة الفاروق، بل كانت استلام ميراث نبوة انتقل من أمة تقاعست عن حمايته والدفاع عنه، وتركته نهبا للروم، إلى أمة قادرة على الذود عنه وتطهيره من الطغيان والوثنية، ولعل في استلام الخليفة نفسه مفاتيح بيت المقدس دون بقية الأراضي المفتوحة إشارة إلى هذا المعنى العقدي.

إن بيت المقدس أرض مباركة ومبارك ما فيها، وهي أرض النبوات، وفيها ميراث عظيم من النبوة والكتاب، قد تأذن الله عز وجل بحمايته بعباد له ذوي بأس شديد، فلما كانت البعثة المحمدية انتقلت تلك الحماية إلى المسلمين، وقد لاحت علامات تلك الوراثة في ليلة الإسراء من خلال الربط بين المسجدين أو القبلتين، ومن خلال صلاة النبي ﷺ بالأنبياء إماما في المسجد الأقصى.

هذا هو المعنى الدقيق الذي استشفه الإبراهيمي من حادثة الإسراء وقد أشار إليه بقوله: «إن المتوسمين في آيات الله المستخرِجين لدقائق الحكم منها يتلمَّحون من الأسرار في اختيارها قبلة أولى، وفي كونها كانت نهاية للإسراء وبداية

٦٣- حديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى». رواه البخاري كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة رقم ١١٨٩ ص: ١٩٠. ومسلم كتاب الحج باب فضل المساجد الثلاثة رقم: ٣٣٨٤ ص: ٥٨٤.

للعروج، ما يضعها في موضع من الاحترام يوجب الدفاع عن مشاعرها ودفع كل معتد على حرماتها أن تدنس بوثنية، وتطهيرها من كل من يريد بها شرا أو يريد فيها بإلحاد، وأنها ميراث النبوة وضعه الله في أيد قادرة على حمايتها، وقد دافعت عنها بالفعل، وأقامت البرهان على اضطلاعها بحمايتها لمدة أربعة عشر قرنا كاملة وحاربت عليها أمم الأرض»[٦٤].

لقد كانت حادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إرهاصا قويا على تغيير القيادة الروحية والدينية من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، إذ لم يعد اليهود مؤتمنين على ميراث النبوة بسبب تخاذلهم، ثم تتابعت أحداث السيرة النبوية لتثبت هذا التوجه، وقد رصد الإبراهيمي اهتمام النبي ﷺ بالشام –ومنه بيت المقدس– أو ما يسميه مواطن الأنبياء ومدافنهم، وكلها جاءت تصديقا للوراثة المعنوية التي تمت ليلة الإسراء، فيقول: «جاء الإسلام وكان من مقاصده الأولى بناء المملكة الإسلامية على صخرة السنن الإلهية والأسباب والمسببات لا على الخوارق، وكان من مقاصده نشر هدايته وفضائله في أرض النبوات الأولى بعد تطهيرها من الجبروت الروماني ومن الاستخذاء اليهودي، وإنا لنتلمح في قصة الإسراء والمعراج –وهما من صنع الله– ثم من اتجاهات نبي الإسلام وتوجيهاته ما يُشعر بأن فتح الإسلام لمواطن الأنبياء ومدافنهم كان هو المقصد الأول للإسلام، وكأن خروج النبي بنفسه إلى تبوك من طريق الشام رمز إلى ذلك وإيحاء به وإنذار للرومان، ثم نتلمح في تجهيزه لجيش مؤتة لقتال الروم ومن يواليهم من العرب والأنباط في مشارق الشام أنه خطوة ثانية، ثم نتلمح في تجهيزه لجيش أسامة وهو في مرض موته تأييدا لتلك المرحلة، وكلها إنذارات للروم حققها ما بعدها»[٦٥].

٦٤- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي ٤ / ٣٩٧.
٦٥- المصدر نفسه: ٤ / ٣٩٦-٣٩٧.

ومرة أخرى يظهر الفقه الدقيق للسيرة النبوية لدى الإبراهيمي، وذلك من خلال هذا الربط الذكي بين أحداثها، كل ذلك في إطار السنن الجارية القائمة على الأسباب والمسببات، ففتْح بيت المقدس لم يتم كحقيقة واقعية إلا عبر جهاد وتضحيات بدأت منذ عهد النبي ﷺ من خلال ثلاث حملات تمت اثنتان منها في حياته هما: مؤتة وتبوك، والثالثة كانت على أهبة الانطلاق ولكن وفاة رسول الله ﷺ أجلها بعض الوقت، لتكون أول مشروع بدأه الصديق رضي الله عنه في خلافته، فقد أصر على إنفاذ جيش أسامة رغم الظروف العصيبة التي أحاطت بالمسلمين في تلك الفترة.

ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى تحقق للمسلمين ذلك المشروع الذي بدأه رسول الله ﷺ، وفتحت القدس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «تم فتح المسلمين لفلسطين في أيام عمر، وكان هذا الفتح كسائر الفتوحات الإسلامية يحمل الهدى والسلام ويفتح الأذهان قبل البلدان، وكان ينطوي على معنى الثأر لموسى ودينه وقومه اليهود لو كانوا يعقلون، فقد قطع دابر الرومان ودولتهم من فلسطين... وبفتح المسلمين لفلسطين -وفيها بيت المقدس- رجع إرث النبوة إلى النبوة واجتمعت مساجد الإسلام الثلاثة في يد واحدة قوية قادرة على حمايتها، وعادت القبلة الأولى إلى الوجوه التي كانت تستقبلها وإلى النفوس المطمئنة لعبادة الله وحده فيها، وإلى الأيدي القادرة على حملها»[٦٦].

هكذا تحولت حادثة الإسراء والمعراج -التي اعتاد كثير من كتاب السيرة النبوية إدراجها في سياق المعجزات- لدى الإبراهيمي إلى مقاصد وعبر ورموز دافع من خلالها على أحقية المسلمين بفلسطين باعتبارها ميراث النبوة الذي ورثوه بعد تضحيات وجهاد، وهذا ما يجب على المسلمين أن يستشعروه إزاء قضيتهم

٦٦- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي ٤ / ٣٩٧.

المركزية، إذا أرادوا أن يحرروها من جديد، ففلسطين –وفيها بيت المقدس– ميراث نبينا محمد ﷺ، ولن يسترجعها سوى جند محمد ﷺ فهم وحدهم من يفقه درس إسراء نبيهم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

المطلب الثالث: الهجرة النبوية (استكمال القوة وتوحيد عناصر الأمة)

حين أراد الصحابة اختيار حادثة يبدؤون بها التقويم الخاص بالمسلمين استقر رأيهم على الهجرة النبوية، كان ذلك سنة ١٧ هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي اختيار الهجرة مبدأ للتاريخ دون بقية الأحداث، إدراك من المسلمين لأهمية تلك الحادثة في تاريخهم رغم وجود أحداث أخرى كالميلاد والمبعث والوفاة، فقد روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة»[٦٧].

فالهجرة النبوية لم تكن مجرد انتقال من بلد إلى بلد، بل كانت أعمق من ذلك بكثير، فهي نقطةُ تحول في تاريخ المسلمين ومنطلق جديد للدعوة واللبنة الأولى في بناء الدولة و «النصر الأول، بل هي أعظم النصر، لأن النصر الذي جاء من بعدها كان ثمرة لها، فهي باب للفتح، ولقد عدها الله –سبحانه وتعالى– النصر الأول وذكّر محمدا وصاحبه ﷺ في غار ثور هذا، إذ قال تعالت كلماته: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠]»[٦٨].

قصدت من هذه التوطئة الإشارة إلى أهمية الحدث الثالث من أحداث السيرة النبوية الذي عالجه الإبراهيمي ووقف عنده يستجلي معانيه ويسبر أغواره ويستنبط أحكامه، فكيف تفاعل البشير مع هذا الحدث العظيم وما منهجه في التعامل معه؟

٦٧- رواه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب التاريخ، من أين أرخوا التاريخ؟ رقم: ٣٩٣٤ ص:. ٦٦٤.
٦٨- محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ١ / ٦٢٣، المكتبة العصرية صيدا بيروت (د. ت)..

سلك الإبراهيمي مع هذا الحدث مسلكا خاصا مزج فيه بين الفلسفة والشاعرية، دون أن يجنح إلى الخيال، بل ظل يدور في فلك الحدث بعيدا عن السرد التاريخي وعرض الأحداث.

وقف بداية عند دلالة لفظ «هجرة» بين اللغة والتاريخ، فانتهى إلى أن اللغة العربية -على سعة أفقها- لم تصل إلى استكناه مدلول الحادثة، ثم جاء التاريخ فكشف عن ذلك المدلول، وقد ساق هذا العرض بأسلوب فلسفي شاعري يحسُنُ أن ننقل منه بعض المقتطفات نستمتع معها بتلك اللغة الشاعرية، ونغوص بها في تلك التأملات الفلسفية، يقول الإبراهيمي: «لم تتسع العربية -على رحب آفاقها- لذلك المعنى الجليل الذي بدأ تاريخا، وأنهض أمة، واستأنف عالما، فسمته بأقرب الكلمات إلى معناه، وما يدل على ظاهره الذي هو انتقال جسماني -من بلد إلى بلد- ... وهذا شأن اللغة كلما عجزت عباراتها الوضعية عن تأدية معنى عظيم، وضاقت عن تحديده، أطلقت عليه كلمة، ترددها الألسنة ويتعارفها الناس، وتشير ولا تحدد، وتركت للعقول التوسع في تصوير الحقيقة، وإبعاد النجعة في طلبها... وهذا شأنها في الكلمات ذات المدلول الواسع مثل الخير والعلم والحق والجمال...

انتهى الحكم في ذلك المعنى الجليل إلى التاريخ بعد اللغة فسماه الهجرة النبوية المحمدية وكشف بهذين الوصفين بعض السر ونبه العقول إلى أنها هجرة من نوع آخر، ومضى يربط سوابقها بلواحقها، ويصف، وفي كل وصف مثار للإحساس، ويقص، وفي كل قصة موضع للعبرة، ويروي الوقائع، وفي كل واقعة جيش لجب من الحماس، ويحكي الأقوال، وفي كل قول مجال للحكمة، ويسلسل الحوادث، وفي كل حادثة مسرح للعقل، ويسمي الأشخاص، وفي كل شخص وقفة للتوسم، ويستعرض الآراء، وتحت كل رأي نسق من التدبير، ثم

يبني النتائج على المقدمات، ويصل الآثار بالمؤثرات، وينتهي وقد كشف عن هذا المعنى الجليل الذي ضاقت عنه كلمة «هجرة» أتم الكشف، وفسره أكمل تفسير.

لا كاشف للحقائق الكونية كالبحث، ولا شارح للأسرار الدينية كالتدبر، ولا محلل للأحداث الاجتماعية كالتاريخ، أما اللغة فوظيفتها وضع العنوان ورسم الخطوط، ومن طلب من اللغة ما هو فوق ذلك فهو لاغ»[٦٩].

لقد حرصت أن أسوق هذا النص على طوله ليتضح مدى إدراك الإبراهيمي لأهمية فقه التاريخ في فهم أحداث السيرة النبوية، ففهم أحداث التاريخ من خلال معانيها اللغوية قصور في إدراك حقائقها، بدليل أن لفظ هجرة لا يعكس كل ذلك الزخم من القيم والمعاني حين لا نضعه في سياقه التاريخي، فالهجرة في معناها اللغوي القريب لا تعدو أن تكون فرارا أو انهزاما أو خوفا أو غيرها من المعاني السلبية، وهذا ما يشير إليه الإبراهيمي بقوله: «كانت الهجرة –بهذا المعنى الخاص– ومازالت هروبا من الباطل والمبطلين، ونجاة بالنفس أو العقيدة أو بهما، فهي في خلاصتها انهزام يعتذر بالضعف إلى أن يجد القوة، وفرار بعزيز يُخافُ عليه إلى حيث يُؤْمَنَ عليه، لم يخرج عن هذا حتى هجرة الأنبياء والصديقين كإبراهيم ولوط هاجرا من بابل إلى كنعان، ولم يرجعا إلى بابل من كنعان»[٧٠].

ولا يقصد الإبراهيمي من ذكر هجرة الأنبياء –ومنهم إبراهيم ولوط عليهما السلام– الانتقاص من مقامهما، كلا وحاشا، ولكنه أراد أن يشير إلى أنهما خرجا من أرض الكلدانيين ببابل بالعراق إلى الأرض المقدسة بالشام ثم لم يعودا إليها، كما كان شأن النبي الخاتم ﷺ الذي هاجر من مكة إلى المدينة وبعد سنوات عاد إليها فاتحا، وهذا هو التميز في هجرة النبي ﷺ.

٦٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٣/ ٤٧١-٤٧٢.
٧٠- المصدر نفسه، ٤/ ٤٧٢.

ويقف الإبراهيمي عند هجرة النبي ﷺ وأصحابه فإذا هي أنموذج فريد في التاريخ، فهي هجرة قوة لا فرار، وهجرة نصر لا انهزام، ويشرح ذلك فيقول: «أما هجرة محمد وأصحابه فكانت هجرة قوة كاثرها الباطل المتهافت والشرك المتخافت وعاقها عن امتداد العروق، وبسوق الأفنان في أرضها التي فيها نبتت، وجوّها الذي فيه تنفست، وقد طاش ذلك الباطل الطيشة الكبرى، وبحث عن حتفه بظلفه، فأخرج تلك القوة إلى حيث تزداد قوة ورسوخا، وهذا من عجيب صنع الله لهذا الدين القوي الراسخ»[٧١].

إن من يطلع على ظاهر الأحداث في الهجرة النبوية وما شملته من تكتم النبي ﷺ وتخفيه وكمونه بالغار وغيرها من الاحتياطات والتخطيطات، لا يشك لحظة في أن الهجرة كانت فرارا وخوفا وضعفا أمام جبروت وطغيان المشركين، ولكننا حين نتأمل أحداث السيرة بعمق، سندرك أن الهجرة كانت تخطيطا سابقا لمؤامرة قريش في تلك الليلة، فقد شرع في التهيئة لها بعد بيعة العقبة الثانية وماتلاها من وصول طلائع المهاجرين، وظل النبي ﷺ ينتظر إذن ربه له بالهجرة حتى كانت تلك الليلة الموعودة.

لقد مكث الرسول ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاما يدعو قومه إلى الهدى الذي جاء به، فما وجد من أكثرهم إلا عتوا واستكبارا وعنادا، «فلم يبق أمام رسول الله ﷺ إلا مفارقتهم والخروج عنهم، ولم يبق لرسول الله ﷺ ذرة من أمل في استجابتهم للهداية، ولابد للرسالة الإلهية أن تمضي في سيرها إلى أرجاء الحياة هادية داعية، لا تقف عند بلد أو قوم أو جيل لأنها رسالة عامة شاملة»[٧٢].

فهذا الذي ذكرته إنما هو استطراد لإقامة الحجة على أن هجرة النبي ﷺ كانت قوة ونصرا، أما الإبراهيمي فلم يطوح بعيدا ولم يبعد النجعة، بل وجد الدليل على ما قال في القرآن الكريم المصدر الأول للسيرة النبوية، ومنه استشف لطيفة لا يلتفت

٧١- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٤ / ٤٧٢.
٧٢- محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، ٢ / ٤٥٣، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥ / ١٩٨٥.

إليها إلا الحذاق من المفسرين، فالقرآن الكريم تحدث عن الهجرة النبوية في موضعين بارزين: الأول في سورة الأنفال في قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٧٣]، والثاني في سورة التوبة في قوله جل ذكره: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٧٤].

وعن تلك اللطيفة والحكمة منها يقول الإبراهيمي: «من اللطائف أن القرآن ذكر قصة الهجرة المحمدية من مكة إلى يثرب بأسلوب ليس من نسق التاريخ، فسماها إخراجا من الذين كفروا ولم يسمها هجرة بصريح اللفظ، وإن سمى الصحابة المهاجرين، ونوه بالهجرة وحض عليها، وقرنها بالإيمان، وجعلها شرطا في الولاية فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾[٧٥]، وبعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يذكي الحماس ويبقي الحنين إلى الديار متواصلا، وينمي غريزة الانتقام، والأخذ بالثأر، وأن إيجاب الهجرة بتلك الأساليب المغرية البديعة، هو جمع لأنصار الحق في مأرز واحد، بعد تشتتهم لينسجموا ويستعدوا إلى الرجعة والكرة»[٧٦].

إن القرآن الكريم يسند الإخراج في الآيتين إلى الذين كفروا، فالنبي ﷺ لم يخرج لكنه أخرج، ويشهد على ذلك قوله وهو بالجزورة في سوق مكة يوم أخرج: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[٧٧].

٧٣- سورة الأنفال: آية ٣٠.

٧٤- سورة التوبة: آية ٤٠.

٧٥- سورة الأنفال: آية ٧٢.

٧٦-أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي: ٣/ ٤٧٢.

٧٧- أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة، رقم ٣٩٣٤ ص: ١٠٦٤. وابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، رقم: ٣١٠٨، ص ٤٧٣.

فهجرة النبي ﷺ بنص القرآن والسنة إخراج، ومكر مَكَرَهُ الكفار، وظلم وقع على المسلمين حين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وكلها تعبيرات يُراد منها حض المؤمنين وتحريضهم على العودة إلى ديارهم واسترجاع حقوقهم المسلوبة.

وقد أدرك النبي ﷺ أن قومه سيخرجونه منذ بعثه الله تعالى وأنزل عليه الوحي بغار حراء، يوم عاد إلى خديجة يرتجف فدثرته حتى ذهب عنه الروع، ثم حدثها الخبر فذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فكان مما قال: «ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك»، فقال رسول الله ﷺ: (أو مخرجيَّ هم؟)، قال: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»[٧٨].

وقد تتبع الإبراهيمي بذكاء دلالات الأحداث كما صاغها القرآن الكريم، فلاحظ أنه ظل يلح على مسألة الإخراج وتذكير المؤمنين بموطنهم الأول مكة، وفي ذلك يقول: «وانظر إلى بدر والحديبية وعمرة القضاء تجدها كلها تعبر عن اتجاه وتحويم وعن حنين إلى مكة تدل مظاهره على خفاياه، ثم انظر أي ثورة تثيرها في النفوس الحرة آية: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٧٩]، وآية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٨٠]. إن للإخراج من الديار لشأنا أي شأن في القرآن الكريم، فهو يبدىء ويعيد في تقبيحه وإنكاره وتحريمه، وهو يقرنه بالقتل تشويها له وتشنيعا عليه، وإن له في نفوس الأحرار لأثرا يتعاصى عن الصفح، وإن له في نفس سيد المرسلين لوقعا مؤلما من يوم قال له ورقة: «إذ يخرجك قومك»، فقال: «أو مخرجي هم؟» إلى يوم أخرجه قومه بغير حق، إلى يوم أخرجه ربه إلى بدر بالحق، إلى يوم صدقه ربه الرؤيا بالحق»[٨١].

٧٨- أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم: ٣ ص: ٢.
٧٩- سورة التوبة: آية ٤٠.
٨٠- سورة الفتح: آية ٢٥.
٨١- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٣/ ٤٧٢-٤٧٣.

وهكذا كان لإخراج النبي ﷺ من مكة الأثر الأكبر في انتصار الإسلام، فقد أرادته قريش إبعادا وأراده الله تعالى حافزا للعودة والفتح، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٨٢].

هذا هو المعنى الأول الذي فهمه الإبراهيمي من حادثة الهجرة النبوية، أما المعنى الثاني فقد استشفه من اجتماع المهاجرين والأنصار في موطن واحد هو المدينة المنورة، وهذا -في تقديره- جمع بين أصلي العرب عدنانيين وقحطانيين، ويبدو الكاتب واثقا مما يقول وذلك من خلال تأكيده بأنه انتهى إلى هذه الفكرة بعد تأمل وتدبر وفيها يقول: «ما زلت منذ درست السيرة بعقلي، أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لجي من العبر والمثلات، ومن بين تلك المقامات حادثة الهجرة، فلا يكاد عقلي يستثير بواعثها الطبيعية حتى أتلمح العوامل الإلهية فيها فأستجلي من بعض أسرارها التمهيد للجمع بين أصلي العرب اللذيْن كانا في الجاهلية يتنازعان ملاءة الفخر، ويؤرث الرؤساء والشعراء بينهما نار العصبية، حتى أضعفتهما العصبية...

جاءت النبوة من مكة إلى المدينة تعمل عملها في جمع القوتين اللتين أحالهما التفرق ضعفا، فجمعت المهاجرين والأنصار، وكأنما جمعت عدنان وقحطان في دار، يتصافحان على العروبة، ويتآخيان على الإسلام... وفي عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار عنوان ذلك ودليله»[٨٣].

فما ذكر الإبراهيمي من اجتماع العدنانيين والقحطانيين في موطن واحد صحيح في شقه التاريخي، فالعدنانيون -وهم في هذا المقام المهاجرون- يرجعون في أصولهم ونسبهم إلى عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، ويُعرفون بالعرب المستعربة، وقد سكنوا شمال الجزيرة العربية، أما القحطانيون -وهم في هذا المقام

٨٢- سورة الأنفال: آية ٣٠.
٨٣- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٣/ ٤٧٣.

الأنصار- فيرجع نسبهم إلى قحطان الذي اختُلف في تحديد نسبه فقيل من ولد سام بن نوح وقيل من ولد هود عليهما السلام، ويُعرفون بالعرب العاربة، ومن أشهر قبائل القحطانيين قبيلة الأزد وإليها ينتسب الأوس والخزرج[٨٤]، وكانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية قبل نزوحهم إلى الشمال واستقرارهم بيثرب.

أما في شقه الدعوي فهو -في تقديري- مستبعد، إذ لم يكن قصد رسول الله ﷺ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إحياء هذه الأصول القبلية، فقد حرص ﷺ على أن يزيل من أذهان الأوس والخزرج ما كان من حمية جاهلية بينهم وفي تسميتهم بالأنصار دليل ذلك، ولم يراع في تلك المؤاخاة الفروق الاجتماعية أو الجنسية أو القبلية فقد ساوى بين العربي وغير العربي وبين العبد والحر، وكان من معاني تلك المؤاخاة أن تذوب عصبيات الجاهلية وأن تسقط فوارق الأنساب والأوطان والألوان وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٨٥].

ولا أقصد بكلامي اتهام الإبراهيمي بالشعوبية أو القومية، فالرجل يعلن براءته من ذلك، فهو لا يؤمن بالتعصب للجنس والوطن حين يقول: «وأنا بصفتي عالما مسلما لا أقول بالعصبيات الجنسية والوطنيات الضيقة، وإنما أدعو إلى الوطنية الواسعة، والعقيدة الروحية الجامعة، فإذا تمت ورسخت أصولها في النفوس فإنها لا تنافي التمسك بالجنسيات من غير تعصب، وذلك هو التحقيق لسنة الله الذي جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا»[٨٦].

ولا يكتفي البشير بتبرئة نفسه من التعصب القومي، ولكن يبرئ أيضا قلمه من أن يخط شيئا من ذلك فيقول: «وهذا القلم ليس شعوبي السن، ولا عنصري

٨٤- انظر في تفصيل ذلك: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون ص: ٧-٨ دار المعارف مصر ط٦ / ١٩٩٩.
٨٥- سورة الحجرات: آية ١٣.
٨٦- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ١٠٢.

النزعة، ووالله ما ليق -منذ جرى- بهوى، ولا مد بباطل، ولا غمس شقاه في منكر، ولا تحلبت ريقته من حمأة التفريق، ولكأنما صيغ هو ولسان صاحبه من جوهر واحد، فهما يتجاريان في حرب شعوبية المذاهب والطرق في الإسلام، وشعوبية الدماء والألسن في الأجناس، وشعوبية الشرق والغرب في أرض الله»[٨٧].

وبعيدا عن أي تأويل فإن الإبراهيمي قصد من إثارة هذه المسألة الدعوة إلى إعادة إحياء روح التآخي بين اليمنيين والحجازيين وهما عنصران مهمان في الأمة، بعد أن مزقت قوى الاستعمار شملهم وجعلتهم شيعا وأحزابا ليسهل عليها الاستيلاء على ما في تلك البلاد من ثروات، ومن هنا جاء هذا النداء في ختام المقال:

«هل تحمل ذكرى الهجرة المتكررة مع كل عام، أولئك اليمنيين الراكدين وهم جمهرة أنساب قحطان، وأولئك الحجازيين وهم منحدر دماء عدنان، على أن يتداعوا إلى ما تداعى إليه أجدادهم، وأن يتآخوا على ما تآخوا عليه.

هل آن لهم أن يعلموا أن هذه المذاهب التي صيرتهم أوزاعا في الدين والدنيا هي السبيل المفرقة عن سبيل الله الواحد، وهي التي نهى الله عن اتباعها؟

هل يعلمون أن طلاب الغاز غزاة، وأن الشركات أشراك، وأن رؤوس الأموال الأجنبية ذات قرون ناطحة، وأن الوطن الذي يعمر بالمال الأجنبي وعِلم الأجنبي محكوم عليه بالخراب، وإن تعالت في الأرض قبابه وكسيت بوشي السماء هضابه، وسالت بذهب الأرض شعابه؟»[٨٨].

فالإبراهيمي لا يزال وفيا لمنهجه الأصيل - وإن عبر ببعض التعبيرات التي

٨٧- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٣/ ٣٥٤.
٨٨- المصدر نفسه ٣/ ٤٧٣-٤٧٤.

قد تفهم في غير سياقها- فالمهم لديه أن تظل السيرة النبوية مدرسة يتعلم منها المسلمون، ونبراسا يهتدون به، فالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تكن مجرد حدث عابر أو عمل مؤقت خاص بذلك الجيل، بل هو سنة سنها النبي ﷺ لأمته، وهذا ما يؤكده العلماء كالنووي الذي قال: «المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق باق لم يُنسخ»[٨٩].

ويقول محمد أبو زهرة: «إن سنة المؤاخاة التي سنها النبي ﷺ ووضع أسسها سنة قائمة إلى يوم القيامة لم يقم دليل على اختصاصها بعصره، وهي صالحة لأن تطبق في أي مجتمع صغير ليتم التجانس بين آحاده والتعاون على أسس من الأخوة الواصلة المقربة»[٩٠].

هذا ما قصده البشير حين أشار إلى اجتماع العدنايين والقحطانيين، ولم يكن يقصد إحياء نعرة جاهلية، والانتصار لفكرة قومية، فالمهم لديه أن تظل أحداث السيرة النبوية حية في واقع المسلمين يتعلمون من هديها ويقتبسون من نورها.

٨٩- شرح صحيح مسلم: النووي، ١٦ / ٣١٥- ٣١٦، دار القلم بيروت لبنان، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٩٠- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص: ١٦٢ دار الفكر العربي القاهرة (د- ت).

المطلب الرابع: غزوة بدر (غلبة الفئة القليلة، وتدشين تاريخ حافل بالانتصارات)

ما كان للإبراهيمي وهو يستعرض أحداث السيرة النبوية أن يمر على غزوة بدر دون أن يتوقف عندها، ذلك الحدث الضخم الذي وقع في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة إنه يوم من أيام الله، إنه يوم الفرقان.

لم تكن موقعة بدر مجرد معركة دارت رحاها في زمن ومكان محددين، انجلى غبارها عن انتصار طائفة وانهزام أخرى، فمثل هذه الوقائع لا يحصى عددا في تاريخ البشرية، ولكنها كانت موقعة خاصة ومتميزة خلد القرآن الكريم ذكرها حين أنزل الله جل شأنه فيها سورة الأنفال وتسمى سورة بدر وسماها «يوم الفرقان»، لأنه فرق فيها بين الحق والباطل، انتصرت فيها الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، ورفع الله جل ذكره قدر من شهدها من المؤمنين ومن الملائكة، كما صح عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام سأله: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟»قال: «من أفضل المسلمين –أو كلمة نحوها– قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة»[٩١].

وصح عنه أيضا قوله ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[٩٢].

«ألا إن غزوة بدر بملابساتها هذه تمضي مثلا في التاريخ البشري، ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة، وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة، الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية، ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان ومكان، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها، فهي آية من آيات الله، وسنة من سننه في خلقه ما دامت السماوات والأرض»[٩٣].

٩١- رواه البخاري، كتاب باب شهود الملائكة بدرا، رقم: ٣٣٩٢ ص: ٦٧٤.
٩٢- رواه البخاري، الكتاب نفسه، باب فضل من شهد بدرا، رقم: ٣٩٨٣ ص: ٦٧٢.
٩٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٤٨٢ دار الشروق القاهرة بيروت ط ١١ / ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

هذه غزوة بدر وتلك أهميتها، فكيف استثمرها الإبراهيمي وما هي الدروس والعبر والمثلات التي استخلصها منها؟

بدأ الإبراهيمي تحليله لغزوة بدر بإبراز أهميتها، فقال في وصفها: «وقعة بدر هي أم الوقائع في تاريخ الإسلام الحربي لأنها أول غزوة شهدها رسول الله ﷺ بنفسه، بعد غزوات الاستطلاع.

ويوم بدر هو يوم الفرقان لأنه أول يوم انتقلت فيه الدعوة الإسلامية من اللسان والحجة والنظر إلى السيف والدم، وهي أول وقعة تقررت فيها قواعد الحرب وأحكامه وآدابه»[٩٤].

فهاهنا ثلاث خصائص تفردت بها غزوة بدر، الأولى أنها مثلت التجربة الأولى للقتال الذي باشره النبي ﷺ بنفسه، والثانية أنها المعركة التي نقلت دعوة الإسلام من اللسان إلى السنان، والثالثة أنها الوقعة التي طبق فيها النبي ﷺ قواعد الحرب وأحكامها وآدابها بدءا بمشروعية الجهاد ثم تقسيم الغنائم وأحكام الأسرى وغيرها.

وبسبب تلك الأهمية التي تميزت بها غزوة بدر فإن الإبراهيمي يدرجها ضمن أيام الله التي يحسن التذكير بها فيقول: «ما كان يوم بدر إلا يوما من أيام الله في الإسلام... وهل يحسن التذكير إلا بأيام الله؟ ولقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾[٩٥]... وحكمة الله في تذكير الأمم بأيام الله، لتستيقظ، وترجع إلى الله، وتتدرع بالعبر والمثلات وحسن الاقتداء»[٩٦].

في هذا الإطار من فقه التاريخ وسننه أراد البشير أن تكون وقفته مع غزوة بدر، وقبل أن يبدأ في بيان ذلك نحى باللائمة على طائفة من الدارسين ممن بالغ

٩٤- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي ٥ / ٨٣.
٩٥- سورة إبراهيم: آية ٥.
٩٦- المصدر نفسه ٢ / ٢٩٨.

في إبراز الخوارق التي ظهرت في تلك الغزوة، حتى تحولت إلى ما يشبه المعجزة التي لا يمكن أن تتكرر أبدا، وهذا خلاف الحقيقة التي أبرزها القرآن الكريم حين بين أسباب النصر وحدد عناصرها لتكون سنة جارية متى تحققت أسبابها جاءت نتائجها، يقول الإبراهيمي: «في غزوة بدر مواقع للعبر، ومكامن للعظات، ومآخذ للتشريع الحربي، ومجالي لسنن الله في الأسباب، ومن المؤسف أن المسلمين افتتنوا بالمظاهر عن استجلاء الحقائق واستنباط العبر والحكم، ودراسة الأسباب اللازمة لمسبباتها، فلا يلهج قديمهم ولا حديثهم إلا بالنصر والخوارق المصاحبة للنصر، وكثيرا ما يكون الافتتان بالنتائج مشغلة عن الحقائق والأسباب التي هي محل القدوة، وكأنهم بهذا الافتتان يعتقدون أن انتصار الإسلام على الوثنية يوم بدر من الخوارق الخارجة عن نطاق الأسباب، وهذا إبطال لآثار التشريع الإلهي في النفوس، فإن الخوارق ليست محلا للأسوة ولا أساسا للتشريع، والإسلام لم يبن قواعده وأحكامه على الخوارق، وإنما بناها على الأسباب والمسببات، وعلى السنن الثابتة التي يتعايش بها البشر وتدخل في إمكانهم، ولو بناه على الخوارق لبطل العقل، وشلت الإرادات، وفلت العزائم، هذه الثلاثة التي يجعلها الإسلام أدوات لفهمه وتثبيته»[٩٧].

وواضح أن الإبراهيمي لا يريد من كلامه إنكار الخوارق ولا التقليل من شأنها، ولكنه يدعو المسلمين إلى الالتفات إلى السنن الجارية التي حققها الصحابة في غزوة بدر، من خلال الإعداد ووحدة الصف والتنظيم والطاعة والفدائية والشجاعة والثبات، يضاف إليها العناصر الروحية من الإخلاص والتوكل والذكر والدعاء والصبر، فهذه أسباب النصر التي يمكن للمسلمين تحقيقها في واقعهم، ويمكن أن تتكرر في كل زمان ومكان.

إن الإبراهيمي يريد من المسلمين عامة ومن علمائهم خاصة أن يتبصروا بسنن

٩٧- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ٨٣-٨٤.

الله تعالى في الأنفس والآفاق، فهي قوانين ونواميس صارمة وثابتة لا تتبدل ولا تتغير، من أخذ بها نجح، ومن تنكبها خسر، ومن ذلك سننه تعالى في نصر عباده المؤمنين، وغزوة بدر مثال حي وخصب يمكن للمسلمين أن يستخلصوا منه عددا كبيرا من السنن، ومن هنا جاءت دعوة البشير إلى التأمل في تلك السنن فيقول: «في غزوة بدر مواقف للاعتبار والادّكار، ومواطن للتأمل والاستبصار، وقد تتجلى العبرة في بعض الأزمنة دون بعض، فإذا وجدت من يستشفها كانت له واعظا فانتفع بها ونفع، وقد تمر بالغافل أو يمر بها معرضا فيكون من الذين قال فيهم القرآن: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾»[98].

بعد ذلك التنبيه وهذا التنويه يخلص الإبراهيمي إلى استخلاص العبرة البليغة من غزوة بدر، فإذا هو يوقفنا على مسألة غاية في الأهمية، مثلت سنة الله تعالى وهي: نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذنه عز وجل، ثم يشرح أسباب ذلك النصر، فإذا هي عناصر تنتظمها سنن الله الجارية لا سننه الخارقة، فيقول: «والعبرة البليغة لقومنا العرب في زماننا هذا من وقعة بدر هي نصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة فلا يقول المتوسمون في آيات الله وسننه:

إن النصر كان خارقة غيبية وإن كانوا يعتقدون أن النصر من عند الله يهبه لمن يشاء ولكنه لا يهبه إلا بأسبابه... إن انتصار نيف وثلاثمائة على ثلاثة أضعافهم ليس خارقة غيبية الأسباب، وإنما هو جار على السنن المعتادة.

وما أُتي من يعتقد خلاف هذا إلا من الغفلة عن سنن الله أو من التقصير في استقرائها، وكلنا نشاهد أن الفئة القليلة تنتصر على الفئة الكثيرة إذا كانت الأولى مسلحة والثانية عزلاء، أو كانت القليلة أزود سلاحا من الكثيرة.

هذا في الماديات ومثله في المعنويات، علمنا بانتصار الفئة القليلة على

98- سورة يوسف: آية ١٠٥.

الكثيرة بإحسان التدبير، وإحكام الرأي، ولطف التحيل، فلماذا نغفل عن الإيمان والعقيدة، وأثرهما في انتصار أصحاب بدر على ثلاثة أضعافهم؟ إن المسلمين انتصروا يوم بدر بالإيمان الصحيح القوي الذي ثبّت العقائد فثبتت الإرادات فاندفعوا اندفاع من يريد أن يموت ليحيا دينه وقومه وبلاده...

هذه هي الروح التي لبست تلك الفئة القليلة حين تراءت الفئتان، فئة الله وفئة اللات في شِعْبِ بَدْر، وهذه هي القوة التي تتضاءل أمامها كل الدنيا ومحال أن ينهزم حامل هذه الروح»[٩٩].

إن ما ذكره الإبراهيمي عن سر انتصار الفئة القليلة ببدر لا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١٠٠]. فهذا النصر كان بفضل الله تعالى ومنته أولا وأخيرا، ولكن إرادة الله تلك تمت بعزمات المؤمنين الذين هيؤوا أسباب ذلك النصر، فنصرهم الله عز وجل.

لقد أشار الإبراهيمي إلى الأسباب المادية والمعنوية التي استوفتها الفئة القليلة ببدر فاستحقت النصر، وكان أهم تلك الأسباب على الإطلاق هو الإيمان، ولقد كانت تلك العناصر وعلى رأسها الإيمان هي العوامل التي جرت بها سنة الله تعالى في نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وستظل بإذن الله تعالى، بها انتصر طالوت وجنوده ممن جاوز النهر على جالوت وجنوده، ويومها رُسمت تلك السنة حين نطق بها بعض جنود طالوت كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[١٠١]، ثم تحققت مع محمد ﷺ وجنده في بدر وهم أذلة بمعنى قلة، ومن عجيب ألا يقتصر توافق الموقفين في النصر فحسب ولكنه أيضا في العدد فيما روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا

٩٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ٨٤-٨٥.
١٠٠- سورة آل عمران: آية ١٢٣.
١٠١-سورة البقرة: آية ٢٤٩.

عدة أصحاب طالوت الذين أجازوا معه النهر، بضعة عشر وثلاثمائة. قال البراء: لا والله، ما جاوز معه النهر إلا مؤمن»[١٠٢].

وتأمل تعقيب البراء رضي الله عنه كيف أكد على عنصر الإيمان، وهو عين ما أشار إليه الإبراهيمي آنفا، ولذلك لا يتردد في صياغة معادلة أخرى، فيجعل اللقاء يوم بدر بين عقيدتين، وفي ذلك يقول: «ذلك اللقاء يوم بدر لم يكن بين طائفتين قليلة وكثيرة، وإنما كان بين عقيدتين حق وباطل، وإرادتين مصممة وواهنة، وحسب الحق في عالم الظهور أن يجد من يمثله، فإذا وجد سقطت عنه مقاييس اللغة والكثرة والقلة من الحساب والاعتبار... ولما ظهرت هذه السنة عمليا ببدر جاء القرآن بتقريرها علميا في سورة الأنفال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾[١٠٣].

والسنة المستترة هي وصف طائفة بأنهم قوم لا يفقهون، وطائفة بأنها صابرة، أصحاب محمد يوم بدر كانوا مؤمنين صابرين على الموت، والمؤمن الصابر لا يرى الموت كما يراه الناس هادما للذّات وقاطعا للشهوات، وإنما يراه بابا للذات الخالدة الباقية»[١٠٤].

وقبل أن ينتقل بنا الإبراهيمي إلى عبرة أخرى من غزوة بدر، يستوقفنا قليلا عند مقارنة ذات مغزى عميق، بين انتصار المسلمين في بدر وانكسارهم في أحد، ليطلعنا على الوجه الآخر للمعادلة السننية حين يتخلى المسلمون عن أسباب النصر فتنالهم سنة الله تعالى التي لا تحابي أحدا، وفي ذلك دليل قطعي بأن المسلمين لا

١٠٢- أخرجه البخاري كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر رقم: ٣٩٥٧، ص: ٦٦٩.
١٠٣- سورة الأنفال: آية ٦٥-٦٦.
١٠٤- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ٨٥.

ينتصرون بسبب كونهم مؤمنين أو أن الله تعالى خصهم من دون الناس بسنن، فهم كغيرهم إذا تنكبوا أسباب النصر حلت بهم الهزيمة، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، يقول الإبراهيمي: «إن يوم بدر ويوم أحد ليعدان- باعتبار آثارهما- من غرّ أيامنا التاريخية فلقد كان الأول نصرا وكان الثاني كسرا، أفكان يوم أحد شرا على المسلمين وهم يعلمون ما سبب الهزيمة؟

إن القيم المعنوية في الرجال، من زكاء النفس، وعلو الهمة، وإطاعة أوامر الله، هو الجانب المعتبر في حياة الرجال، وذلك ما أتاح النصر للمسلمين يوم بدر وهم قلة، وإن الطمع في الأسلاب الحقيرة، ومخالفة أوامر الرسول ﷺ هما سبب هزيمة المسلمين يوم أحد وهم كثرة. وإن القوة المعنوية التي تسلح بها رجال بدر هي التي رجحت كفتهم... وكذلكم كانت واقعة أحد درسا قاسيا للمسلمين عرفوا به مصدر الداء، داء الغرور ذلك المرض الذي ما أصيب به فرد أو جماعة إلا أهلكه»[١٠٥].

فما ذكره الإبراهيمي من أسباب انكسار المسلمين في أحد إنما استخلصه من القرآن الكريم الذي واجه المؤمنين بالحقيقة المرّة وذكر أسباب الهزيمة دون لبس أو غبش فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٠٦].

وحين تساءل المؤمنون يستنكرون تلك الهزيمة كان رد القرآن الكريم حاسما فقال المولى عز وجل: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١٠٧].

١٠٥- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٢ / ٢٩٨.
١٠٦- سورة آل عمران: آية ١٥٢.
١٠٧- سورة آل عمران: آية ١٦٥.

هكذا أقام الإبراهيمي الدليل على أن انتصار الفئة القليلة مشروط باستيفائها عوامل النصر، وإلاّ جرت عليها سنة الله تعالى، وقد وضح ذلك من خلال تلك المقارنة بين النصر ببدر والانكسار بأحد.

يسوق الإبراهيمي هذه السنن المستخلصة من غزوتي بدر وأحد، لينبه الأمة في حاضرها، بأن تلك السنن ستظل ثابتة بشروطها، فمتى تبصرها المسلمون في واقعهم تحققت لهم نتائجها فانتصروا ولو كانوا فئة قليلة كما كان في بدر، أما إذا أعرضوا عنها فستحل بهم الهزيمة ولو كانوا فئة كثيرة كما حصل في أحد، ومن هنا فإنه يضع يده على السبب الحقيقي لنكبة فلسطين فيعزوها إلى تلك السنن، فالمسلمون -ومنهم العرب- ما انهزموا أمام عدوهم في معركة فلسطين وهم فئة كثيرة، إلا لأنهم لم يستوفوا شروط النصر التي حققها أسلافهم فانتصروا وهم فئة قليلة، وتلك سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

هذا الذي استخلصه البشير كعبرة من درس بدر لعل الأمة تعتبر، وتدرك سر هزيمتها، فيقول في ختام كلمته: «أسوق هذه العبرة إلى إخواني المسلمين عموما وإلى قومي العرب خصوصا، ليعلموا بماذا انتصرت الفئة القليلة يوم بدر، فيعلموا لماذا انكسرت فئتهم الكثيرة يوم فلسطين»[١٠٨].

ونعود إلى العبرة الثانية التي استشفها البشير من غزوة بدر، وهي أن بدرا كانت الصفحة الأولى في سجل حافل من الانتصارات في تاريخ المسلمين، وهو في ذلك يعطي دليلا آخر على أن النصر ببدر لم تحكمه خوارق ولكنه تم وفق سنة جارية، وما توالي الانتصارات في مواقع كثيرة بنفس الملابسات إلا برهان على ذلك، فكل تلك الانتصارات بدءًا ببدر وانتهاء بآخر انتصار حققه المسلمون ينتظمها خيط واحد وليس لها سوى تفسير واحد وهو الأخذ بسنن الله تعالى في النصر كما حددتها آيات سورة الأنفال.

١٠٨- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٨٥.

وحتى لا يبقى كلام الإبراهيمي تنظيرا، فقد نقل إلينا من خلال جولة تاريخية نماذج رائعة من الانتصارات التي حققها المسلمون عبر تاريخهم الطويل والحافل، بدءًا بجيل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة ثم ما تلاها من عصر الدولة الأموية في المشرق والمغرب وانتهاء بمعركة تحرير فلسطين على يد صلاح الدين في معركة حطين.

فقد ذكّرنا بمعارك حاسمة في تاريخ المسلمين، منوّها ببطولات قادتها الفاتحين، دون أن ينسى تحديد الأماكن التي كانت مسرحا لتلك المعارك، والتي غالبا ما ارتبطت بتسميات تلك الفتوح، وهو في ذلك يؤكد على مسألتين مهمتين هما: أسماء أولئك الأبطال الذين خلدتهم تلك المعارك، والمواقع التي خلدتها.

وحتى لا نثقل على القارئ الكريم بنقل النصوص الطويلة، فإننا نكتفي بالإشارة إجمالا إلى تلك المعارك وأبطالها، فقد ذكر الإبراهيمي من المعارك: اليرموك والقادسية وأجنادين، وفتح مصر، وشمال إفريقيا، والأندلس والأرك والزلاقة والعقاب وحطين، وذكر من الأبطال الفاتحين: خالد بن الوليد، وعياض ابن غنم، وعبد الرحمن الداخل، وعبد الرحمن الناصر، وصلاح الدين.

وقبل أن يفصح البشير عن الهدف من ذكر أولئك الأبطال وفتوحهم، توقف عند صلاح الدين ومعركة حطين وانتصاره على الصليبيين، ومرّر من خلالها رسالة فيها تعريض بالصليبية الحديثة التي كانت جاثمة على بلدان كثيرة من العالم الإسلامي آنذاك ممثلة في الاستعمار وهو الوجه الجديد للحروب الصليبية، فيقول: «أجل حارب الصليبين الذين رابطوا قرب المعرّة نحو مائة عام يستعدون لتسديد الضربة القاضية فهزمهم هزيمة شنعاء لم يعرف التاريخ نظيرها في تلك الأيام، وهم قوم غلاظ شداد يحملون في نفوسهم حقدا على الإسلام والمسلمين طالما غذاه القساوسة والرهبان في أوربا بمختلف أنواع التغذية المسمومة، الراجعة

إلى خبث الطوية، وفساد التربية، وسوء التوجيه، أولئك هم الصليبيون الذين حاربهم صلاح الدين، وتلك بعض صفاتهم، وأولئك هم الذين ما تزال بعض سماتهم ماثلة للعيان في بعض الأمم حتى في أيامنا هذه»[١٠٩].

ولا يخفى ما في هذا الوصف من التحريض على إحياء بطولة صلاح الدين بالثورة في وجه الاستعمار وتحرير بلاد المسلمين منه، خاصة الجزائر التي كانت ثورتها التحريرية في سنتها الأولى آنذاك.

أما عن الهدف من تلك الجولة التاريخية فقد حدده الإبراهيمي في عنصرين أساسين، بهما تحيا الأمة ويعلو شأنها وهما: روح الوطنية، وبطولة الرجال. هذان هما رأس مال الأمة، وهما مقياس قوتها أو ضعفها، يقول الكاتب: «إن الأرك والعقاب بالأندلس، وحطين بفلسطين، واليرموك بالشام، والقادسية بالعراق، وبدر في الحجاز، هي أسماء أماكن وقعت فيها غزوات، ولكنها لا تدل في فهمي إلا على درس خالد في الوطنية العليا، إذ خلود الأماكن خلود للأوطان، وإن في حياة خالد وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين الأيوبي وما أتوا من خوارق العادة لأعظم درس في سير الرجال، وخلود الأبطال، وإن من حافظ على الأوطان ولم يبخس الرجال حقهم كتب الله له الخلود، ومن ضيع الأوطان، وبخس عظماءه حقهم ذهب في الذاهبين، وهل يمكن أن يحفظ القلب في غير الجسد؟ وهل ينسى المسلمون تلك الأماكن وأولئك الرجال؟»[١١٠].

إن الإبراهيمي يخاطب بهذه المعاني أمة تخلت عن كل مقوماتها وأسباب قوتها، فرطت في الأوطان فاحتلها الاستعمار، وقطعت صلتها بأولئك الأبطال، وعجزت عن إيجاد أمثالهم، وهو بذلك يرسم لها السبيل لاستعادة مجدها وتحرير أوطانها.

١٠٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٢ / ٢٩٩.
١١٠- المصدر نفسه، ٢ / ٢٩٩-٣٠٠.

وهكذا يتخذ الإبراهيمي من غزوة بدر مناسبة لتذكير الأمة بتاريخها وأمجادها، واستنهاض همتها لتغيير أحوالها، وبذلك تتحول أحداث السيرة النبوية إلى محفزات وسنن جارية يتعين على الخلف أن يتبصر بها إن هو أراد أن يستعيد بطولات وأمجاد السلف.

لقد أعطى الإبراهيمي أحداث السيرة النبوية أبعادها الحقيقية حين نقلها من إطارها الزماني والمكاني، وحوّلها إلى قوانين وسنن، ومثل هذا الفقه لا يتأتى إلا لمن أدرك أسرار القرآن الكريم، وتبصر سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق، وهو السبيل الوحيد لتحقيق الأسوة الحسنة من خلال السيرة النبوية الشريفة كما نص عليها القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[111].

المطلب الخامس: فتح مكة المكرمة (استرجاع موطن الإسلام الأول وإرساء أسس العدل والمساواة)

الحدث الخامس من أحداث السيرة النبوية الذي استوقف الإبراهيمي هو فتح مكة، وقد كان من حسن الطالع أن يكون خاتمة تلك الجولة القصيرة من حيث عدد الأحداث، والعميقة من حيث استلهام دروسها وعبرها، تماما كما كان الفتح تتويجا لمسار طويل وشاق من دعوة رسول الله ﷺ وجهاده الذي استمر أكثر من عقدين من الزمن.

ففتح مكة المكرمة كان يوما من أيام الله أعز فيه جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وسيظل حدثا متميزا مليئا بالعبر والمثلات، ما جعل الإبراهيمي يفرده بوقفة خاصة استجلى من خلالها ثلاثة دروس مهمة سنذكرها تباعا.

تطرق الإبراهيمي إلى سبب انتصار النبي ﷺ وفتحه لمكة، فرد ذلك-كما

111- سورة الأحزاب: آية ٢١.

عهدنا– إلى تحقيق المؤمنين لثلاثة شروط وفق سنن الله تعالى في اتخاذ الأسباب، وقد استشف تلك الشروط من خلال ما استهل به الرسول ﷺ خطبة فتح مكة حين قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، هزم الأحزاب وحده)[١١٢]. فصاغ من ذلك ثلاثة أسباب للنصر هي: إخلاص التوحيد لله، وصدق العبودية له، ونذر الجندية في سبيله[١١٣].

ومرة أخرى يضعنا الإبراهيمي أمام التفسير السنني لأحداث التاريخ في إطار المعادلة الشرطية التي تقضي بإفضاء المقدمات إلى النتائج بعيدا عن الخوارق والمعجزات.

هذا عن عالم الأسباب، أما عن عالم المشاعر والوجدان، فقد لاحظ الإبراهيمي أن النبي ﷺ كان له أمنيتان: الأولى متعلقة بقومه وعشيرته الذين حرص على دعوتهم إلى الهداية وقد بلغ في ذلك مبلغا جعل ربه يهون عليه ويسليه بمثل قوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[١١٤] وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[١١٥].

ويشرح الكاتب سبب هذا الحرص فيقول: «فإسلام قريش كان الأمنية الأولى لمحمد ﷺ من يوم بعث، فهم عشيرته الأقربون، وأول من يؤثرهم أصحاب النفوس الكبيرة بالخير هم الأقارب قرابة النسب أو قرابة الجوار، وقريش من محمد ﷺ بالمكان المكين من الجوارين، ويزيد هذه الأمنية في نفس محمد ﷺ ثبوتا واستقرارا أن العرب كلها كانت تنتظر بإسلامها–بعد تعميم الدعوة– إسلام قريش لذلك بدأ بدعوتهم إلى الهدى الذي جاء به، ولبث ثلاث عشرة سنة لا

١١٢– أخرجه أبو داود، كتاب الديات، باب: في الدية الخطأ العمد، رقم: ٤٥٤٧، ص: ٤٩٠.، والنسائي، كتاب: القسامة، باب: كم دية شبه العمد، رقم: ١٨٠١، ص: ٦٩٠. وابن ماجة: كتاب الديات، باب: دية شبه العمد مغلظة، رقم: ٢٦٢٨، ص: ٣٩٥.

١١٣– انظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥ / ٨٧.

١١٤– سورة فاطر : آية ٨.

١١٥– سورة الكهف : آية ٦.

يبيت فيهم إلا داعيا، ولا يصبح فيهم إلا داعيا»[١١٦].

فقريش كانت زعيمة الوثنية في شبه الجزيرة العربية، ولذلك ظلت محط أنظار القبائل الأخرى، تنتظر ما يكون من شأنها، ساهمت في صد الناس عن الهدى الذي جاء به النبي ﷺ برفضها ومحاربتها للدعوة وبث الدعاية الكاذبة بما كانت ترمي به النبي ﷺ من التهم والنعوت، لكن مكانة قريش بدأت تهتز بعد هزيمتها المذلة في غزوة بدر وفشلها الذريع بتحزيب القبائل في غزوة الخندق، ثم أذعنت بقبولها التفاوض في صلح الحديبية، وأخيرا جاء الفتح فدخل الناس في دين الله أفواجا فأسلمت قريش، فتداعت قبائل العرب في عام الوفود كلها تعلن إسلامها. روى البخاري عن عمرو بن سلمة: «أن العرب كانت تتلَوّمُ بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق نبي، فلما جاءت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم»[١١٧].

وإلى المعنى نفسه ذهب ابن هشام في سيرته فيما روى عن ابن إسحاق قال: «وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل: (أفواجا) يضربون إليه من كل وجه»[١١٨].

فما كان يرجوه رسول الله ﷺ من إسلام قريش فتقتدي بها قبائل العرب لم يتحقق إلا بعد عناء شديد، وجهد جهيد.

١١٦- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ص ٥/ ٨٥.
١١٧- أخرجه البخاري كتاب المغازي، رقم: ٤٣٠٢، ص: ٧٢٨.
١١٨- ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ٢٠٥.

أما الأمنية الثانية التي تمنى رسول الله ﷺ أن يحققها، فهي فتح مكة التي ظل قلب النبي ﷺ يحن إليها منذ أخرجه قومه، وعن هذه الأمنية يقول الإبراهيمي: «وفتح مكة كان الأمنية الثانية لمحمد ﷺ من يوم هاجر إلى يثرب، فمكة دار ميلاده ومطلع بعثته وميدان دعوته، وقبلة صلاته، ومجلى مناسكه، ومجمع مآثر قومه، ومتبوأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما اضطر إلى الخروج كان خروجه منها وسيلة إلى الرجوع إليها، ولولا أمر ربه المنطوي على حكم كشف عنها الزمان بعد، لما فارقها ولما رضي بغيرها بديلا، فقد كان يحبها حبين: حب الفطرة والنشأة، وحب الدين والإرث، فلما حمّ الدافع واقتضت الحكمة الإلهية الخروج منها كان دائم الحنين إليها، دائم التشوق إلى غزوها، وتمكين الدين فيها وجرّ قومه إلى الجنة ولو بالسلاسل، منتظرا إيذان ربه بذلك»[١١٩].

وتم للنبي ﷺ تحقيق هذه الأمنية أيضا بحمد الله تعالى فجاء نصر الله والفتح، ودخلت قريش في دين الله تعالى واستعاد رسول الله ﷺ مكة، وطهَّرَها من براثن الوثنية والشرك، وأعادها إلى التوحيد كما أقامه الخليل وابنه أول مرة.

وتأمل كيف استطاع الإبراهيمي أن يلخص جهاد رسول الله ﷺ ودعوته لأكثر من عشرين سنة فيما سماه أمنيتي النبي ﷺ، إسلام قريش وفتح مكة، وحين تستعرض أحداث السيرة النبوية في عهدها المكي والمدني ستجد أنها لا تخرج عن هذين الهدفين، فما إن فتحت مكة وأسلمت قريش ودخل الناس في دين الله أفواجا، حتى نزلت سورة النصر تعلن قرب أوان انتقال رسول الله ﷺ إلى جوار ربه كما فسرها ابن عباس وأقره عمر ابن الخطاب على ذلك[١٢٠].

بعد تلك الوقفة بدأ الإبراهيمي في استنباط دروس وعبر فتح مكة، فلخصها في ثلاثة عناصر كما ذكرنا آنفا.

١١٩- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٨٧.

١٢٠- رواه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: «فسبح بحمد ربك»، رقم ٤٩٧٠، ص: ٨٩١.

العبرة الأولى: حلم النبي ﷺ وعفوه «الذي فعل في نفوس قريش ما لم يفعله الجيش بكتائبه وأسلحته»[١٢١].

وقد ذكر البشير نماذج ممن عفا عنهم رسول الله ﷺ بدءًا بزعيم قريش أبي سفيان وزوجته هند بنت عتبة، ثم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية اللذيْن حاولا صد خالد بن الوليد عن الدخول إلى مكة وفشلا في ذلك، وقبوله ﷺ لجوار أم هانئ لحمويْها، ذكر حلم النبي ﷺ وعفوه عن هؤلاء جميعا دونما حاجة إلى الإطناب في سرد قصصهم لأن الذي يهمه في هذا المقام هو إبراز هذا الخلق الكريم من رسول الله ﷺ الذي ضرب المثل الأعلى في حلمه وعفوه، فقد كان أرأف حكم في حق هؤلاء أن يقتص منهم، ولكنه عفا عنهم فكان ذلك سببا في إسلامهم.

ولأن العفو عن هؤلاء الأفراد لم يكن سوى قطرة من فيض حلم النبي ﷺ وعفوه، فإن البشير لم يغفل الإشارة إلى المكرمة العظمى والمنة الكبرى التي منَّ بها ﷺ على أهل مكة جميعا، وفي ذلك يقول: «وتأتي المكرمة التي غطت على جميع المكارم، وهي مَنُّهُ على قريش كلها بعد أن أظهره الله عليهم وقوله لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، وهذه هي التي تحقق شهادتهم فيه بأنه أخ كريم وابن أخ كريم، كلمة جبر بها كسر قريش، وكسر بها حدة الذين لا يشفي غيظهم على قريش إلا ضرب يزيل الهام عن مطيله»[١٢٢].

ويظل هذا الموقف الرائع من رسول الله ﷺ مضرب المثل، فمهما قلّب الناس صفحات التاريخ فلن يقفوا أبدا على ما يدانيه أو يشابهه، بما في ذلك عفو يوسف عليه السلام عن إخوته، بل إن هذا العفو يبقى متميزا بين مواقف العفو الكثيرة في حياة

١٢١- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٨٨.

١٢٢- المصدر السابق الصفحة نفسها، والحديث: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» رواه ابن إسحاق وهو ضعيف، ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٥٥.

النبي ﷺ نفسه، ولذلك حق أن يوصف بمكرمة المكارم على حد تعبير الإبراهيمي.

أما الدرس المستفاد من تلك المكرمة والتي قصد الإبراهيمي إلى إبرازه فهو بيان أثر الحلم والعفو في كسب قلوب الناس.

العبرة الثانية التي استشفها البشير من فتح مكة هي: وضع قاعدة المساواة، وقد سماها نفحة النفحات وفيها يقول: «أما نفحة النفحات التي مازالت تنعش المسلمين إلى قيام الساعة ويرفعون بها رؤوسهم فخرا وتيها، فهي وضع قاعدة المساواة التي مات الأنبياء والحكماء وفي نفوسهم حسرة من عدم تحقيقها في العالم الإنساني، إلى أن جاء بها الإسلام وأعلنها محمد ﷺ يوم فتح مكة فقال: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»[١٢٣].

في تتمة الحديث أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١٢٤].

بهذه الكلمات خاطب رسول الله ﷺ القرشيين ليذهب عنهم عُبية الجاهلية، إذ كان المجتمع قائما على أساس طبقي فيه الأسياد والعبيد والأغنياء والفقراء والأشراف والموالي، فكان لابد من وضع معيار جديد للتفاضل هو التقوى، أما مسألة الأنساب والأحساب فلا قيمة لها عند الله تعالى، لأن أصل الناس جميعا يعود إلى أب واحد هو آدم، فلا مجال للتفاخر في هذا الأمر.

وكتطبيق عملي لمبدأ المساواة فقد أمر النبي صلى عليه وسلم بلال الحبشي أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة، فتحركت نوازع الجاهلية في نفوسهم

١٢٣- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ٥/ ٨٨، والحديث رواه ابن إسحاق وهو ضعيف، ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٥٤.
١٢٤- سورة الحجرات: آية ١٣.

فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا (يقصد أباه) ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته، أما أبو سفيان فأمسك عن الكلام، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: (قد علمت الذي قلتم)، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: «نشهد أنك رسول الله والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك»[١٢٥].

والشاهد أن القوم كرهوا أن يرتقي ذلك الذي كان ذات يوم عبدا مملوكا يهان ويعذب هذا المرتقى، وما علموا أن الإسلام قد رفع من شأن بلال حتى كان عمر بن الخطاب يقول عنه: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»، يعني بلالا[١٢٦].

وفي موقف آخر تجلت حقيقة المساواة التي دعا إليها رسول الله ﷺ في خطبته، وذلك في قضية المخزومية التي سرقت، فيما أخرج الشيخان: «أن امرأة سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، فلما كلمه فيها أسامة تلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتكلمني في حد من حدود الله؟ قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: (أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، ثم أمر رسول الله عليه ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها»[١٢٧].

هكذا نقل النبي ﷺ مبدأ المساواة إلى التطبيق وكلماته في خطبته لا تزال ترن في الآذان، فرأى القرشيون كيف أن الإسلام يلغي التفاوت الطبقي، فيرفع من قدر بلال بن رباح الحبشي الأسود، ويطبق حد السرقة على المرأة المخزومية

١٢٥- ابن هشام، السيرة النبوية، ٤ / ٥٦.
١٢٦- أخرجه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب بلال بن رباح رقم ٣٧٥٤ ص: ٦٣١.
١٢٧- رواه البخاري كتاب المغازي رقم: ٤٣٠٤ ص ٧٢٨. ومسلم كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود رقم: ٤٤١٠ ص: ٧٤٨.

الشريفة، ومن هنا فقد صدق الإبراهيمي حين ذكر أن النبي ﷺ هو وحده من وضع قاعدة المساواة.

العبرة الثالثة التي استفادها الإبراهيمي من فتح مكة هي تحطيم الأصنام، حيث يقول: «أما تحطيم الأصنام التي حول الكعبة فقد حطم مثلها أبوه إبراهيم الخليل، ولكن محمدا ﷺ طهر النفوس من الوثنية قبل أن يطهر وجه الأرض من الأوثان»[١٢٨].

فالبشير يشير إلى ما قام به رسول الله ﷺ بعد دخوله مكة كما جاء في الصحيحين: دخل النبي ﷺ مكة، يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل)، (جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)[١٢٩].

كما قام بتطهير جوف الكعبة من الأصنام والصور، بعدها بعث سرايا لتحطيم الأصنام في أماكن متفرقة، يقول ابن القيم: «وبث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة، فكسرت كلها منها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنما إلا كسره»[١٣٠].

فهذا الذي قام وأمر به رسول الله عليه وسلم من تحطيم الأوثان وتطهير مكة وما حولها منها، إنما جاء بعد اقتناع الناس أن ما كانوا يعبدون من دون الله باطل، وأن تلك الأصنام التي كانوا يعكفون عليها ليست سوى حجارة لا تضر ولا تنفع، بمعنى أن من كانوا عبادا لتلك الأوثان بالأمس هم أنفسهم من يقوم

١٢٨- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي ٥ / ٨٨.

١٢٩- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح رقم: ٤٢٨٧ ص: ٧٢٥، ومسلم، كتاب الجهاد، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة رقم: ٤٦٢٥ ص: ٧٩٤.

١٣٠- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ص: ٤٧٦، مؤسسة الرسالة دمشق / بيروت، ط١: ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م.

بتحطيمها اليوم، وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يطهر القلوب من الشرك أولا، ثم طهر الأرض من الأوثان بعد ذلك.

وما النداء الذي تردد في أرجاء مكة يناشد في الناس إيمانهم بالله واليوم الآخر، بتحطيم كل الأصنام حتى لا يبقى في بيوت أهل مكة صنم واحد يعبد من دون الله عز وجل إلا برهان على ذلك، وهو ما كان. فقد استجاب الناس لذلك النداء الإيماني وطهروا أم القرى وما حولها من تلك الأوثان بعد أن طهر الله قلوبهم من الوثنية، حتى لم يبق بمكة بعد الفتح مشرك كما قال ابن حجر العسقلاني[١٣١].

هذه هي العبر الثلاث التي استخلصها الإبراهيمي من فتح مكة، وهي بلا شك تمثل ثلاثة مواقف خالدة تجلت من خلالها عظمة النبي ﷺ وعظمة الدين الذي جاء به، وقد مثلت ثلاثة قرارات حاسمة أصدرها الرسول ﷺ، فقد أصدر قرارا بالعفو الشامل وأمّن الناس في أنفسهم وأموالهم فكان لذلك وقعه في النفوس فأسلمت مكة كلها، ثم أصدر القرار الثاني فكان إعلانا عن إرساء مبدأ المساواة بين الناس وعزز ذلك بنموذجين عمليين، فرأى الناس بأعينهم حقيقة المساواة بعد أن سمعوها بيانا في خطابه ﷺ، ثم جاء القرار الثالث بتطهير حرم الله من الأوثان بعد أن أيقن الناس أنهم كانوا في ضلال مبين حين عبدوا أصناما وسموها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

فإذا عرف العبد ربّه ووحّده، ومُنح عفوا يعيد إليه حريته، وتخلص من رواسب الجاهلية، فقد أوتي خيرا كثيرا، فكان أسعد الناس في هذه الدنيا.

١٣١- انظر: ابن حجر العسقلاني : فتح الباري، ١٠ / ٢٤٧، دار إحياء التراث العربي ببيروت لبنان، ط: ٢، ١٤٠٢ هـ.

الخاتمة

بعد هذه الوقفة المتأنية مع جهود البشير الإبراهيمي ومنهجه في دراسة السيرة النبوية، والتي حاولت -جهد المستطاع- استقراءها من خلال آثاره، أعود لأخص أهم النتائج التي خلصت إليها في النقاط الآتية:

- اقتصرت مساهمة البشير الإبراهيمي في السيرة النبوية على بعض موضوعاتها، إذ لم يكن المقصود التأليف فيها، ولكنها كانت من أهم الوسائل التي وظفها في المهمة التربوية والإصلاحية التي اضطلع بها خاصة تحت راية جمعية العلماء.

- استطاع البشير أن يعطي للسيرة النبوية أبعادها الاجتماعية والتربوية حين أخرجها عن الإطار النمطي السردي المعهود لدى بعض الكتاب، ولذلك لم يلتفت كثيرا إلى تفاصيل الأحداث، ولكنه كان يتخير من الحدث ما يخدم الهدف التربوي الذي حدده سلفا.

- كان للقرآن الكريم والسنة النبوية الحضور المكثف، إذ كانا المصدرين الأساسين في فهم السيرة النبوية، وهذا ينم عن استيعاب كامل لذَيْنك المصدرين، وإدراك لأهميتهما في تقديم سيرة صحيحة وبعيدة عن الأخبار الضعيفة والموضوعة.

- كان أكثر تركيز البشير على العبر والدروس والمثلات يستخلصها بدقة وفهم عميقين، ويوظفها توظيفا واعيا في علاج علل الأمة وأدوائها.

- جعل من السيرة النبوية معيارا للحكم على القضايا المستجدة؛ إيمانا منه بهيمنتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

- تعامل الإبراهيمي مع أحداث السيرة النبوية باعتبارها وحدة متكاملة،

فاتسمت نظرته إليها بالشمولية، لذلك كان يتتبع سير الأحداث بدقة، ويحسن الربط بينها.

- أهم ما ميز تعامل الإبراهيمي مع السيرة النبوية هو ذلك التفسير السنني للأحداث، حين أخرجها من إطار الزمان والمكان وحولها إلى سنن ونواميس قائمة على قوانين ثابتة وصارمة تؤدي فيها المقدمات إلى النتائج، ومن هنا جاء إلحاح البشير على إدراك أهمية الأسباب في فهم أحداث التاريخ، ودعوته إلى سلوك المنهج نفسه إذا أرادت الأمة تغيير أحوالها.

- أحداث السيرة النبوية كما فهمها الإبراهيمي وتعامل معها ليست مجرد تاريخ أو قصص، ولكنها معاني ودلالات وعبر ومثلات يتعين على دارس السيرة النبوية فهمها واستنباطها، وهو ما وفق فيه البشير إلى حد بعيد.

هذا عن النتائج إجمالا، أما النتائج المتعلقة بالقضايا التي طرحتها في هذه الدراسة فأوجزها في النقاط الآتية:

- في مبحث روافد البشير الإبراهيمي في السيرة النبوية خلصت إلى أنه ألمّ بأحداث السيرة النبوية إلماما كاملا ومتميزا، فقد استقاها من مصادرها الأصلية بداية ثم عمق من فهمها على أيدي مشايخ ومصلحين أكفاء، زادها رسوخا ما وُهب من حافظة قوية وقريحة نيرة، وذهن صيود للمعاني، ثم صقلت بمطالعات كثيرة في شتى العلوم والفنون، هذا عن مرحلة التلقي والتحصيل ثم جاءت مرحلة العطاء والتعليم، فكان للسيرة النبوية حضورها المتميز إدراكا منه لما لهذا العلم من أهمية في أداء المهمة الإصلاحية والتربوية التي اضطلع بها طوال حياته.

- في مبحث نقد الإبراهيمي للمناهج التقليدية في التعامل مع السيرة النبوية

وجدت أنه ركز حول ثلاث قضايا هي:

أ- نقد إهمالهم القرآن الكريم كمصدر للسيرة النبوية، واعتماد مصادر أخرى أقل أهمية، ولا يخفى ما في هذا الإهمال من آثار سلبية في كتابة السيرة أو فهمها.

ب- نقد تركيزهم على الجانب البشري في السيرة وإغفالهم للجوانب العملية التربوية، فكان من نتائج ذلك: الاهتمام بجوانب ليست محلا للقدوة أو جوانب ليست ذات أولوية، وبذلك لم يتحقق الهدف من مدارسة السيرة وهو إبراز القدوة الحسنة.

ج- نقد تحويل أحداث السيرة النبوية إلى قصص حشوية، ما حوّل السيرة النبوية إلى حديث خرافة على أيدي الغالين، وأخبار متهافتة أو تأويلات متخاذلة على أيدي الجافين.

في مبحث نماذج من أحداث السيرة النبوية ومنهج الإبراهيمي في التعامل معها، والذي استغرق ثلثي البحث، توصلت إلى النتائج الآتية:

- في حادثة ميلاد النبي ﷺ يرى الإبراهيمي أنه ليس ميلاد رجل بل هو ميلاد دين وإخراج أمة، وهو ميلاد جديد للبشرية وخروج بها من الظلمات إلى النور، ومن التيه إلى الرشاد، وبذلك تخطت نظرته كل الإرهاصات التي تهول من أمر الميلاد بما نسجت حوله من روايات واهية، فإذا به يحمل دلالات الهدى والنور والحرية والمساواة والرحمة وغيرها من المعاني السامية، وهذا ما يجب على الأمة أن تستوحيه من ميلاد النبي ﷺ، لا أن تحول المناسبة إلى لهو ولعب.

- حادثة الإسراء والمعراج ساقها الإبراهيمي في معرض الدفاع عن إسلامية بيت المقدس وفلسطين، وقد استوحى ذلك من دلالة اختيارها قبلة أولى،

ونهاية للإسراء وبداية للعروج، وفي ذلك إرهاص قوي في تغيير القيادة الروحية وميراث النبوة من أمة متخاذلة إلى أمة قادرة على حماية ذلك الميراث، وهكذا تحولت حادثة الإسراء والمعراج إلى معانٍ ورموزٍ دافع الإبراهيمي من خلالها على أحقية المسلمين بفلسطين باعتبارها ميراث النبوة ورثوه بعد جهاد وتضحيات، بعد أن تخلت عنه أمة متخاذلة، وهو في النهاية يومئ إلى أن فلسطين ميراث يجب المحافظة عليه وبذل الغالي والنفيس من أجل تحريرها.

- الهجرة النبوية كانت أنموذجا فريدا في التاريخ، فهي هجرة قوة لا فرار، وهجرة نصر لا انهزام، وقد استلهم الإبراهيمي ذلك من دلالة الإخراج التي عبر بها القرآن الكريم عن الهجرة، وما لها من وقع في نفوس المؤمنين وتحفيزهم على العودة إلى وطنهم الذي أخرجوا منه بغير حق، وقد تتبع الكاتب سير الأحداث بعد الهجرة فألفاها تحوم حول التذكير بضرورة العودة، وبذلك كانت الهجرة انتصارا للإسلام.

- غزوة بدر كانت يوما من أيام الله نصر فيه الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وهي أول وقعة تقررت فيها قواعد الحرب وأحكامه، وقد كانت وقفة الإبراهيمي مع غزوة بدر عميقة حين تناولها في إطار فقه التاريخ وسننه، فانتهى إلى أن النصر كان نتيجة لاستيفاء شروطه، وليس بسبب الخوارق، فرسم بذلك سنة لله تعالى تردد صداها عبر سجل حافل من الانتصارات خُلدت فيه بطولات قادة أفذاذ، وخُلدت فيه مواطن كانت مسرحا لتلك المعارك الحاسمة. وقد قصد من ذلك استثارة همة الأمة حتى تكرر تلك البطولات وتتخلص من الاستعمار الجاثم على صدرها آنذاك.

- فتح مكة المكرمة كان بدوره يوما من أيام الله أعز فيه جنده ونصر عبده

وهزم الأحزاب وحده، وقد استخلص الإبراهيمي منه ثلاثة أسباب للنصر، ليضعنا من جديد أمام التفسير السنني للأحداث في إطار المعادلة الشرطية التي تقضي بإفضاء الأسباب إلى النتائج بعيدا عن التفسير الغيبي للتاريخ.

أما عبر الفتح فقد لخصها الكاتب في ثلاثة دروس مهمة هي:

- الدرس الأول: حِلم الرسول ﷺ وعفوه الذي فعل في النفوس ما لم تفعله الجيوش بأسلحتها، فدخل الناس في دين الله أفواجا.
- الدرس الثاني: هوإرساء النبي ﷺ لقاعدة المساواة التي ظلت حُلما، وقد رأى الناس ذلك الحلم يتحقق من أول يوم.
- الدرس الثالث والأخير: هو تطهير الجزيرة من الأوثان بعد تطهير النفوس من الوثنية، فإذا بالذين عبدوا الأصنام دهرا هم من يحطمها اليوم، وذلك هو التغيير الحقيقي الذي ينبثق من النفس أولا ثم يظهر صداه في الواقع.

هذا ما توصلت إليه من نتائج من هذه الدراسة التي بذلت فيها كل جهدي في تجميع مادتها من آثار الإبراهيمي.

فأرجو أن أكون قد وقفت في ذلك.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

قائمة المصادر والمراجع

١- د / إبراهيم علي، في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، العدد: ٥٤، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، رجب ١٤١٧هـ، ديسمبر ١٩٩٦م.

٢- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٢، ١٤٠٢هـ.

٣- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط: ٦، ١٩٩٩م.

٤- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ط: ١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: ٣/ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٦- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار القلم بيروت لبنان، (د-ت).

٧- د / أحمد طالب الإبراهيمي، آثارالإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط: ١ / ١٩٩٧م.

٨- د / أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان الرياض، ط: ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٩- الإمام أحمد بن حنبل، المسند، حققه وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت ط: ١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

و١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٠-الإمام مالك بن أنس، الموطأ، رواية يحي بن يحي الليثي، دار النفائس، بيروت، ط: ٦، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١١-الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، دار القلم بيروت لبنان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٢-الحافظ العراقي، ألفية السيرة النبوية، تحقيق وتعليق: السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار المنهاج، جدة -السعودية، ط: ١/ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٣-الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٤-سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، نشر مكتبة دار الفتح دمشق، توزيع المكتب الإسلامي بيروت، ط: ٣، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م.

١٥-سنن ابن ماجه، دار الوراق للنشر والتوزيع، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٦-سنن أبي داود، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٧-سنن الترمذي، دار الوراق للنشر والتوزيع، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٨-سنن النسائي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٩-سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط: ١١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٠-شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم عرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤١٧هـ.

٢١-صحيح البخاري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط: ٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٢-صحيح مسلم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط: ٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٣-محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة (د-ت).

٢٤-محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د، ت).

٢٥-محمد صادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، دار القلم، دمشق، ط: ١ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

Abstract

Sheikh Mohammed Al-Bachir Al-Ibrahimi's Applied Method on the Study of the Prophetic Biography

Dr. Hocine Cheurfa

This research work discusses the method Sheikh Mohammed Al-Bachir Al-Ibrahimi applies on his study of the Prophet's biography (Assira Anabawiya). It is organized into three themes:

1. His sources about the Prophet's biography: Al-Ibrahimi acquired his knowledge on the issue from very genuine resources as advised by his shrewd teachers, which led him to hem in thoroughly the knowledge of its meanings and its valuable substance. When he himself became a teacher of the same subject for long years to come, he acquired a wide and outstanding amount of its knowledge as well as a considerable mastery of the subject.

2. His critics on the traditional methods used on the studies of the issue: His solid and consistent background on the subject matter gave him the vision to distinguish the wrong from the right in the Prophet's Biography (Assira Anabawiya).

3. Patterns from the biography viewed under Al-Ibrahimi's method in dealing with it: I have come to the conclusion that Al-Ibrahimi had indeed lifted the biography (Assira) from its traditional static form into some new perspectives with valuable references in education and reformation, both of which were main targets of his mission with the Algerian Muslim Learned-Men Association.